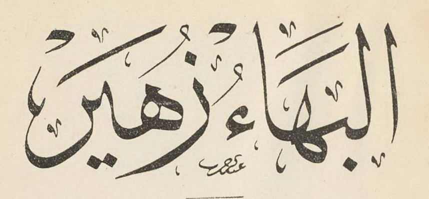


البهاء زهير

بحث بقلم

مصطفى عبد الرازق

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م



بحث بقلم

مصطفى عبد الرازق

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

عرفت شعر البهاء زهير إذ أنا صبيّ أقرأ على والدى — يرحمه الله — شيئا من كتب الأدب فى بعض الليالى . وقد أحببت شعر البهاء زهير مذ عرفته .

كان يتأتّى لعقلى الناشئ أن يستشفّ معانيه من ثنايا ألفاظه اللطيفة وتراكيبه ، على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجابا دون المعانى كثيفا فى الشعر أحيانا وفى النثر . وكان موقع وزنه الموسيقى ونَغَمه يستثير فى نفسى أرْيحيّة وطربا ، حتى لتأثر بذلك ذوقى ، فهو يهفو فى البيان الى نوع من الأنغام والوزن .

ثم درست بعد ذلك سيرة البهاء زهير فيما كتب الكاتبون عنه وفيما حفِظت لنا الأيام من آثاره ، فتجلى لى من امتياز الرجل وتفوّقه ما ملأنى حبا له وتقديرا .

البهاء زهير مثال من مُثُل الخلق العظيم : يجمع الى حب الخير وفضيلة العفو قوّةَ الشخصية وشرفَ النفس وعزةَ الإباء . وتلك صفات لا تجتمع إلا لأهل الفِطَر الفائقة ، خصوصا فى عصر كعصر البهاء زهير ولمن كان فى مثل منصبه .

كان البهاء زهير صديقا للشاعر المشهور جمال الدين المصرى يحيى بن مطروح الذى وُلد بأسيوط سنة ٥٩٢ هـ ، ثم أقام بقوص زمنا . وفى قوص تعارف البهاء زهير وابن مطروح ، وعاشا كالأخوين أيام الصبا ، ثم اتصلا معًا بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب من قبل أن يتولى الملك فى حياة أبيه الملك الكامل ، واستمرا فى خدمته بعد أن صار ملكا .

أما ابن مطروح فكان فى صورة وزير لدمشق ، وحسنت حاله وارتفعت منزلته .

قال ابن خلكان : « وفى سنة ٦٤٦ عزل ابن مطروح عن ولاية دمشق ... ... ثم عاد الملك بعسكره الى الديار المصرية وابن مطروح فى الخدمة والملك الصالح متغير عليه متنكر له ، لأمور نَقَمها عليه . وخيّم الملك الصالح عسكره على المنصورة وابن مطروح مواظب على الخدمة مع الإعراض عنه . ولما مات الملك الصالح وصل ابن مطروح الى مصر وأقام بها فى داره الى أن مات سنة ٦٤٩ » .

أما البهاء زهير فقد بلغ رتبةً تزاحم الوزارةَ جاهَها أو تزيد ، وهى رتبة الرياسة لديوان الإنشاء . وقد تنكّر له الملك الصالح أيضا فى أواخر أيامه وعزله ، فى حديث نرويه مفصلا بعد ، فأبى للبهاء زهير شرف نفسه أن يتنصل من ذنب لم تكن كل تَبِعته عليه ،

وأبى له شممه أن يقيم فى الخدمة مع الإعراض عنه ، فرحل من فوره الى داره ولزمها فقيرا معدما حتى مات .

واذا كان البهاء زهير عظيما فى خلقه ، كما رأيت ، فهو عظيم أيضا بمقامه فى تاريخ الأدب العربىّ .

عاش البهاء زهير فى القسم الأخير من العصر العباسى ، وكان الأدب العربىّ فى هذا الدور قد جاوز المدى فى التنميق والعناية بالمحسِّنات البديعية والسجع والإغراب اللفظىّ .

وأشهر أئمة الإنشاء فى ذلك العصر رجلان : أحدهما القاضى الفاضل محيي الدين ، أو مجير الدين ، أبو علىّ عبد الرحيم البيسانى ثم العسقلانى ثم المصرىّ ، وزير صلاح الدين وصاحب ديوان الإنشاء لعهده المتوفَّى سنة ٥٩٦ ،

وثانيهما العماد الكاتب الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حامد الأصفهانىّ المتوفى سنة ٥٩٧

ويلقّب القاضى الفاضل بشيخ البلاغة ، ويلقب العماد الكاتب بعمدة المنشئين .

وقد أدخل العماد أساليب الترسّل بما فيها من سجع وجناس واقتباس واستعارات وكنايات ، فى المؤلفات العلمية ، فكتب فى التاريخ كتبا على هذا الطراز : مثل مؤلفه المعروف بالفيح القسى فى الفتح القدسىّ .

أما القاضى الفاضل فله فى كتابة الإنشاء طريقة تعرف بالطريقة الفاضلية، سار على نهجها أهل عصره ومن جاء بعد عصره، وفشت فى الأدب العربى . وقد سنّ سننا فيما تصدّر به الرسائل والتواقيع وما تختم، وفى أساليب الدعاء وغير الدعاء .

وتمتاز الطريقة الفاضلية بالإطناب وكثرة الاقتباس والتضمين والمطابقة والتورية والمجاز مع الإسراف فى الجناس وما اليه من المحسّنات اللفظية ومع الميل الى المفردات الغريبة والتراكيب الفخمة .

عُيِّن البهاء زهير رئيسا لديوان الإنشاء فى الدولة الأيوبية، فحل محلا كان القاضى الفاضل صاحبه من قبل، وتولاه بعده تلميذان من أتباع مذهبه .

جاء البهاء زهير والطريقة الفاضلية فى عنفوان مجدها، فابتدع هو فى الشعر والإنشاء نمطا جديدا خرج به عن التقاليد المرسومة فى صور المخاطبات وفى الأساليب : فهو موجِز لا يحب الإطناب، وهو مقتصد فى زينة اللفظ، وهو نزّاع الى الوضوح والبساطة فلا يرضى كثرة المجاز والكناية، وهو عدوّ للجمود على نُظُم فى البيان تقتل مواهب الإبداع والتفنن .

ثم هو لا يريد أن يستبدل الناسُ بكلامهم العادىّ كلامَ الجاهلية الأولى اذا نظموا الشعر أو كتبوا، وانما يريد أن يصحح الشعراءُ والكتّاب أساليبهم على مقتضى القواعد العربية، حتى لا تنقطع

الصلة بين ماضيهم وحاضرهم ، من غير أن يجنى ذلك على سهولة التفاهم ولا على حركة اللغة ونموها وحياتها .

هذا المذهب الجديد فى إصلاح الأدب العربى لم يلق فى ذلك المصر ما يمدّه ويقويه ، ولم يكن البهاء زهير بفطرته السمحة وخلقه الوديع رجلَ كِفَاح يجاهد متحمسا فى سبيل دعوة لمذهب جديد .

لم يرق لكثير من الأذواق التى أفسدها التقليد هذا المذهب الذى يفك عنها قيودها ويخلّصها من التكلف الى مسايرة الفِطَر . ولقد أغفل المؤرخون الذين وقفنا على مؤلفاتهم شأن البهاء زهير فى ديوان الإنشاء ، حتى من تخصص منهم بهذا الموضوع كالقلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى ، فلم يرو لنا منهم أحد شيئا من الرسائل التى كتبت بقلمه على كثرة ما نقلوا من رسائل كتّاب هم دونه مقاما .

وكل ما عثرنا عليه من ذلك رسالته فى الردّ على كتاب لويس التاسع ملك فرنسا الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وسنعرض لها فيما بعد . ذكر هذه الرسالة الإسحاقى فى تاريخه ، ثم أوردها المقريزى فى خططه ، ونقلها على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية .

وهذه الرسالة المفردة تهدى ، عند مقارنتها بما كان يكتبه القاضى الفاضل والعماد الكاتب وأضرابهما ، الى المَنَازع التى اختص بها البهاء

زهير و يعين على ذلك ديوان شـعره . وعسى أن يوفَّق الباحثون الى أخوات لهذه الرسالة تزيدنا علما بطريقة البهاء زهير وخصائصها .

هذا ، ولست أعرف شاعرا نفخت مصر فيـه من روحها ما نفخت فى البهاء زهير، فهو مصرى" فى عواطفـه ، وفى ذوقه ، وفى لهجته الى الغاية القصوى ، وان كان مولده فى بلاد الحجاز .

من أجل ذلك كله ، وضعتُ هذا البحث فى البهاء زهير الشاعر المصرى" ، إحياء لذكرى رجل جدير بأن يحيا بيننا تَذْكاره . وقد سبقنى فى العام المـاضى الى نشر بحوث فى البهـاء زهير وشـعره الأستاذان المنشاوى والسقا المدرسان بالمدارس الثانوية الأميرية ، والأستاذ الشايب المدرس بالجامعة المصرية ، واطلعت على ما كتبوا بعد أن فرغت من رسالتى .

وقد تحرّى الأساتذة مطابقة المنهج الذى وضعته وزارة المعارف لدرس الأدب العربى وتاريخه ، فلهم فى البحث وجهة غير وجهتى ، وهذا ما يسوِّغ لى أن أنشر رسالتى بعد أن نشروا كتابيهم القيمين ، معترفا بفضلهم ، مثنيا عليهم جميل الثناء .

مصر فى مارس ١٩٣٠ — مصطفى عبد الرازق

البهـاء زهـــير

أبو الفضل زُهَيْر [1] بن محمد بن علىّ بن يحيى بن الحسن بن جعفر ابن منصور بن عاصم المهلَّبىّ العَتَكىّ الأَزْدىّ الملقب بهاءَ الدِّين المعروف بالبهاء زهير .

والمهلبىّ نسبة الى المهلَّب بن أبى صُفْرَة ، فالبهاء زهير ينتسب الى المهلّب الذى كان من أشجع النّاس وكان سيِّدًا جليلا .

رُوى أنّه قدم على عبـد الله بن الزُّبَيْر أيّامَ خلافتـه بمكة ، فخلا به عبد الله يشاوره ، فدخل عليه عبد الله بن صَفْوان بن أميّة القرشىّ ؛ فقال : من هذا الذى قد شَغَلك يا أمير المؤمنين يومَك هذا؟ قال : أمَا تعرفه؟ قال : لا ؛ قال : هذا سيِّد أهل العِراق ؛ قال : فهو المهلّب بن أبى صفرة ! فقال المهلّب : مَنْ هذا يا أميرالمؤمنين؟ قال : سيِّدُ قريش ؛ قال : فهو عبد الله بن صفوان ؟ قال : نعم . وتُوُفِّى المهلَّب سـنة اثنتين وثمانين وخَلَّف عدّةَ أولاد نُجباء أجوادا أمجادا ، وتسلسل المجد فى ذُرِّيَّته زمنًا طويلا .

والعتكىّ (بفتحتين) نسبة الى العَتِيك : بطن من قبيلة الأَزْد . والأزد هى أزد شَنُوءَة ، و يقال الأسد بالسين .

---

(١) فى كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ : « أبو الفضل وقيل أبو العلاء » .

و يصف بعض المؤرخين البهاء زهيرا بالحجازى"، و يصفه بعضهم بالمصرى"، ويجمع له آخرون بين الوصفين .

ولئن كان مولد البهاء زهير بمكة أو بوادى نخلة بالقرب من مكة، فى روايتين رواهما عنه ابن خلّكان الذى عرَفه واجتمع به، فإنّ البهاء زهيرا مِصرىّ المَنْشأ، مصرىّ الرُّوح، مصرى العاطفة، وهو القائل :

فرَعَى الله عهدَ مصرٍ وحَيّا	ما مَضَى لى بمصرَ من أوقاتِ
حبّذا النيلُ والمراكبُ فيه	مُصعِداتٍ بنا ومُنحدراتِ
هاتِ زِدْنِى من الحديث عن النِّيـ	ـلِ ودَعْنى من دِجلةٍ والفُراتِ
وليالىّ بالجزيرةِ والجيـ	ـزةِ فيما اشتهيتُ من لَذّاتِ
بين روض حكى ظهورَ الطّواويـ	ـسِ وجوٍّ حكى بطون البُزاةِ
حيث مَجْرى الخليج كالحيّةِ الرقـ	ـطاء بين الرياضِ والجنّاتِ

والقائلُ :

ولم أرَ مصرًا مثلَ مصرَ تروقُنى
ولا مثلَ ما فيها من العَيْش والخَفْضِ
وبعدَ بِلادى فالبلادُ جميعُها
سواءٌ، فلا أختارُ بعضًا على بعضِ

والقائلُ :

أأرحَلُ عن مصرٍ وطيبِ نعيمِها وأىُّ مكانٍ بعدَها لىَ شائقُ
وأتركُ أوطاناً ثراها لناشقٍ هو الطِّيبُ لا ما ضُمِّنَتْه المفارقُ
بلادٌ تروقُ العينَ والقلبَ بهجةً وتجمَعُ ما يهوَى تقىٌّ وفاسقُ

وهو الذى يقول أيضا :

سَقَى وادياً بين العَرِيش وبَرْقةٍ من الغيثِ هطَّالُ الشآبيبِ هتانُ
وحيَّا النسيمُ الرَّطْبُ عنِّى اذا سَرَى هنالك أوطاناً اذا قيل أوطانُ
بلادٌ متى ما جئتَها جئتَ جنَّةً لعينك منها كلما شئتَ رضوانُ
تُمثِّلُ لى الأشواقُ أنّ ترابَها وحصباءَها مسكٌ يفوحُ وعقيانُ
فياساكنِى مصرٍ تُراكُم علمتُمُ بأنِّىَ مالى عنكمُ الدهرَ سُلوانُ
وما فى فؤادِى موضعٌ لسواكُمُ ومن أين فيه وهْوَ بالشوقِ ملآنُ
عسى اللهُ يَطوِى شُقَّةَ البعدِ بيننا فتَهْدأَ أحشاءٌ وتَرْقأَ أجفانُ
علىَّ بذاك اليومِ صومٌ نَذَرْتُه وعندِى على رأى التصوُّف شُكرانُ

ومَن كان هذا هُتافه بحبِّ مصر فهو مصرىّ و إن كان مسقط رأسه بلاد الحجاز باجماع من ترجموا له .

* * *

ولد البهاء زهير خامس ذى الحجّة سنة ٥٨١ — (٢٧ فبراير سنة ١١٨٦) . وتوفى قبل مغرب يوم الأحد رابع ذى القعدة من

سنة ٦٥٦ — (٢ نوفمبر سنة ١٢٥٨) بوَبَاءٍ حدث بمصر والقاهرة ذلك العام، ودفن من الغد بعد صلاة الظهر بتربته فى القرافة الصغرى غيرَ بعيد من قُبّة الإمام الشافعىّ رضى الله عنه فى جهتها القبليـــة .

ونشأ البهاء زهير فى مدينة قوص بالصّعيد الأعلَى كما ذكره السيوطىّ فى "حسن المحَاضرة" . ولم يذكر ابن خلّكان فى ترجمته الطويلة للبهاء زهير نسبتَه الى قوص، لكنه ذكر فى ترجمته لجمال الدّين ابن مَطْروح أنّه كان بين الاثنين صحبةٌ قديمة من زمن الصِّبا، وإقامتهما ببلاد الصّعيد حتى كانا كالأخَوين ، وليس بينهما فرقٌ فى أمور الدنيا ، ثم اتّصلا بخدمة الملك الصالح وهما على تلك المودة. وابنُ مطروح من مدينة أسيوط . وقوص يومئذ هى أكبرُ مدنِ الصعيد، وليس بأرض مصر بعد الفُسْطاط مدينةٌ أعظمُ منها، وهى باب مكة واليمن والنُّوبة وسواكن، حَفلة الأسواق، مُتّسعة المرافق، فيها تنزلُ القوافل الواردة من بحر الهند والحَبَش واليمن والحجاز، وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة، والحمّامات والمدارس والبساتين، ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار والعلماء والأغنياء ، وكانت ملتقى الحُجّاج المغاربة والمصريين والإسكندريّين ومن يتّصل بهم، منها يذهبون الى جُدّة واليها انقلابهم فى صدورهم من الحجّ .

وقوص من قديم الزمان مَنْبَع العلم والعلماء . ويقول صاحب كتاب "الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد" وهو كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوىّ المتوفَّى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧م) : إن بقوص ستّةَ عشرَ مكاناً للتدريس .

ولم يرد للبهاء زهير ذكر فى كتاب الأدفوىّ إلّا عرضًا .

ولم يحدِّثنا أحد ممن ترجموا للبهاء زهير عن سيرة أبيه ، غير أنّا وجدنا فى نسخة خطية قديمة بدار الكتب المصرية لديوان شعر البهاء زهير — رقم ٢٠٥١ أدب — وصف أبيه « بالعارف محمد قدّس الله رُوحه » ، وينعت بذلك فى العادة أهل الصلاح والتقوى .

وانتقال والد البهاء زهير من مكة الى قوص فى تاريخ غير معروف ، إلّا أنّ كلام المؤرخين ، كابن خلّكان ، يفيد أن البهاء زهيرا قضى زمن صِباه فى الصعيد ، ونشأ الودّ بينه وبين ابن مطروح فى ذلك العهد .

وربما يسبِق الى الظنّ أنّ البهاء زهيراً كان طفلا حين هاجرتْ أُسرته الى وادى النيل ؛ لكنا نجد فى شعره قصيدتين يذكر فيهما عهده بالحجاز . أمّا أوّلاهما فهى :

أحِنّ الى عهدِ المُحَصَّبِ من مِنًى ... وعيشٍ به كانت تَرِفّ ظِلالُه
ويا حبّذا أمواهُه ونسيمُه ... ويا حبّذا حصباؤه ورِمالُه

ويا أسفى إذ شَطّ عنى مزارُه ويا حزنى إذ غاب عنى غزالُه
وكم لِىَ بين المروتين لُبانةٌ وبدرُ تمامٍ قد حوَتْه حِجالُه
مُقيمٌ بقلبى حيث كنت حديثُه وبادٍ لعينى حيث سرت خيالُه
وأذكر أيامَ الحجاز وأنثنى كأنى صريع يعتريه خَبالُه
وياصاحبي بالخَيْفِ كن لِى مُسْعِدًا اذا آن من بين الحجيج ارتحالُه
وخذْ جانبَ الوادِى كَذا عن يمينه بحيث القَنَا يهتزّ منه طُوالُه
هناك ترى بيتًا لزينب مشرقًا اذا جئت لايخفى عليك جَلالُه
فعَرِّضْ بذكرِى حيثُ تسمع زينبٌ وقل ليس يخلو ساعةً عنكِ بالُه
عساها اذا مامَرّ ذكرى بسمعها تقول : فلانٌ عندكم كيف حالُه

والقصيدة الثانية هى :

سقى الله أرضًا لستُ أنسى عهودَها
ويا طُولَ شوقى نحوَها وحنينِى
منازلُ كانت لى بهنّ منازلٌ
وكان الصِّبا إلفى بها وقرينى
تذكرتُ عهدًا بالمحصّب من مِنًى
وما دونه من أبْطَح وحُجُون
وأيامَنا بين المقام وزَمْزمٍ
وإخوانَنا من وافدٍ وقطين

زمانٌ عَهِدتُ الوقت لى فيه واسعًا
كما شئتُ مِن جِـدٍّ به ومُجُون
إذِ العيشُ نَضْرٌ فيـه للعين مَنْظَرٌ
وإذ وجهُـه غَضٌّ بغـير غُضـونِ

وليست ذكرياتِ طفـل هـذه الذكريات التى يحنّ البهـاء زهير الى عهدها بين المقام وزمزم ، فلا بدّ أن يكون شاعرنا جاء الى قوص فتًى مستكملا .

قال المؤرخون : وآنتقل البهاء زهير من قوص بعـد أن رُبِّى فيها وقـرأ الأدب وسمع الحديثَ وبَرَع فى النظم والنـثر والترسُّل، ووصل الى القاهرة فاتّصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبى الفتح نجم الدين أيوب فى حياة أبيه الكامل أيّام كان نائبًا عنه .

ويظهر أن البهاء زهـيرًا كان آتّصل قبـل ذلك بخدمة الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللَّمَطىّ الذى هنّأه شاعرنا سنة ٦٠٧ لتوليّه أعمال القوصية بقصيدة هى أولُ مديحه — كما فى طبعة پلمر — مطلعـها :

تَمَلَّيْتَـهُ يا لابسَ العِـزِّ مَلبسَا وهُنِّئْتَه يا غارس الجُود مَغْرسَا

ومنهـا :

به أصبحت قوصُ اذا هِىَ فاخرتْ
أعزَّ قبـيلٍ فى الأنامِ وأنْفَسَـا

ومنهـا :

لقد شرّفت منه الصعيدَ ولايةٌ وأصبح واديه به قد تقـدَّسا

ونجد للبهاء زهير قصائد فى مدح هذا الأمير يلتمس فى بعضها العونَ منه ، كقوله :

عسى نظرةٌ من حسن رأيكَ صدفة
تسوق الى جَدْبى بها المـاءَ والكَلَا
فهأنذا أشكو الزمانَ وصَرْفَه
وتأنَفُ لى عَليـاكَ أنْ أتبذَّلَا
مقـيمٌ بأرضٍ لا مُقـامَ بمثلِهـا
ولولاكَ ما أخّرتُ أن أتحوّلا
فُجـدْلى بحُسْنِ الرأيِ منـك لعلّنى
أرى الدهر ممـا قد جرى متنصّلا
وهل كنتُ ألا السيف خالطه الصَّدَى
فكنتَ له ياذا المواهب صَـيْقَلَا

ونجـد فى ديوان البهاء زهير مدحًا للا مير وتهنئةً بشهر الصوم سنة ٦٠٩ فى قصيدة تفيض بالشكر والثناء، منها :

مَوْلًى بَدَا من غير مسألة بـهـا جاز المَـدَى كَرَمًا وعاد كما بَدَا
وأنال جُودًا لا السحابُ يُنِيلُه يومًا و إن كان السحابَ الأجودا

وفى قصائد أخرى مدحٌ وثناءٌ أيضا ، كالقصيدة التى مطلعها :

لها خَفَرٌ يومَ اللقاء خفيرُها ... فما بالُها ضَنَّتْ بما لا يَضيرُها
وما نالنى من أنعُمِ الله نعمةٌ ... وان عَظُمتْ إلّا وأنت سفيرُها
ومَنْ بَدَأ النُّعمَى وجاد تَكَرُّماً ... بأوّلها يُرجَى لديه أخيرُها

ثم نجد بعد ذلك شعرًا للبهاء زهير فى مدح الأمير مجد الدين اللَّمَطىّ ينمّ عن شكوى وعَتْب . وفى بعض القصائد تصريحٌ بأن البهاء زهيرًا كان كاتبا للأمير ثم انفصل من خدمته . ففى سنة ٦١٩ أو سنة ٩١٢ (على نسختين مختلفتين من نسخ الديوان أرجّح أولاهما) قال البهاء زهير فى الأمير مجد الدين بن إسماعيل بن اللمطىّ قصيدته التى أوّلها :

لنا عندكم وعدٌ فهلّا وَفَيتُمُ ... وقلتم لنا قولًا فهلّا فعلتُمُ
حَفِظنا لكم وُدًّا أضعتم عهودَهُ ... فشتّانَ فى الحالين نحن وأنتمُ

ومنها :

فياتاركى أنوى البعيدَ من النّوَى ... الى أىّ قومٍ بعدَكم أتيمّمُ
ألَا إنّ إقليماً نَبَتْ بِى دارُهُ ... وإن كَثُرَ الإثراء فيه لَمُعْدِمُ
وإن زمانًا ألجأتنى صروفُه ... لخَاوَاتُ بُعْدِى عنكمُ لَمُذَمَّمُ
وأعلم أنّى غالطٌ فى فراقكم ... وأنّكمُ فى ذاك مثلى وأعظمُ
فلا طابَ لى عنكم مُقامٌ بموطنٍ ... ولو ضمّنى فيه المَقامُ وزمزمُ

ومثلُك لا يأسى على فقدِ كاتبٍ ... ولكنّه يأسى عليك ويندمُ
فمن ذا الّذى تُدنيه منك وتصطفى ... فيكتبُ ما توحى إليه ويكتمُ
ومَنْ ذا الذى تُرضيك منه فطانةٌ ... تقول فيَدْرِى أو تُشير فيَفهمُ
وما كلُّ أزهارِ الرياض أريجةٌ ... وما كلُّ أطيار الفلا تترنَّمُ

ومن قصائده التى تنمّ عن العَتْب قصيدةٌ مطلعها :

أعلمتمُ أنّ النسيمَ اذا سَرَى ... نقلَ الحديثَ الى الرَّقيب كما جَرَى

ومنها :

مولاىَ مجدَ الدِّين عَطْفًا إنّ لى ... لَمَحبّةً فى مثلها لا يُمْتَرَى
يا مَنْ عرفتُ الناسَ حين عرفتُه ... وجهلتهمْ لما نبا وتنكرا
خُلُقٌ كماء المُزْن منك عهدتُه ... ويعزُّ عندى أن يقال تغيّرا
مولاىَ لم أهجُرْ جنابَك عن قِلًى ... حاشاىَ من هذا الحديث المُفترَى
وكفرتُ بالرَّحمن إن كنتُ امرأً ... يرضَى لما أوليتَه أن يَكْفُرا

وقال البهاء زهير أيضا يمدح هذا الأمير وقد انفصل من خدمته :

آياتُ مجدك ما لها تبديل ... وعلوُّ قدرك ما اليه سبيلُ
أسَفِى على زمنٍ لديك قطعتُه ... وكأنّنى للفرقَدين نزيلُ
واذا انتسبتُ بخدمتى لك سابقًا ... فكأنّها لِىَ مَعْشَرٌ وقَبِيلُ
هذا هو الأدب الذى أنشأتَه ... فاهتزّ منه روضُه المطلولُ

وربما دلّ كل ذلك على أنّ هجرة البهاء زهير من قُوص الى القاهرة كانت بعد انفصاله من خدمة اللطىّ بعد سنة ٦١٩ ؛ ولعل هِجْرتَه للاتّصال بخدمة الملك الصالح كانت فيما حوالى سنة ٦٢٢ ؛ فإنا نجد له قصيدة فى هذا العهد مدح بها الصالح ، ستأتى الاشارة اليها ، وقد يكون اتّصل قبل الملك الصالح بأخيه الملك المسعود صلاح الدّين أبى المظفَّر يوسف بن الملك الكامل؛ فانّ فى ديوان شاعرنا قصيدةً مدحَ بها هذا الملك لمّا قَدِم من اليمن سنة ٦٢٠ كما فى طبعة پلمر، وأول هذه القصيدة :

لكم أينما كنتم مكانٌ وإمكانُ ... ومُلكٌ له تَعنُو الملوك وسلطانُ

ومنها :

هو الملك المسعود رأياً ورايةً ... له سَطوةٌ ذَلّتْ لها الإنسُ والجانُ

غَدا ناهضًا بالملك يحمل عِبْئَهُ ... وأقرانُه ملك المكاتبِ ولِدانُ

وتهتزّ أعوادُ المنابر بٱسمه ... فهل ذكرتْ أيامَها وهى قُضْبانُ

ومنها :

أُعَلِّل نفسى بالمواعيدِ والمُنَى ... وقد مَرّ أزمانٌ لذاك وأزمانُ

أرى أنّ عِزِّى من سواكَ مَذَلَّةٌ ... وإنّ حِبَائى من سواكَ لحِرْمان

وليس غريبًا مَنْ اليه اغترابُه ... له منه أهلٌ حيث كان وأوطانُ

وقد قرّب الله المسافةَ بيننا ... فها أنا يحوينى وإيّاه إيوانُ

وقال يمدحه بعد رجوعه من اليمن ، وأرسل بها من قوص الى مصر سنة ٦٢١ :

أتتك ولم تبعُدْ على عاشـقٍ مصرُ ... ووافاك مشتاقاً لك المدحُ والشِّعرُ
الى الملك المسعود ذى البأس والنَّدَى ... فأسـيافُه حُمْـرٌ وساحاتُه خُضْرُ

وتوجه البهاء زهير فى خدمة الملك الصالح الى البلاد الشرقيّـة الى أن ملَك الصالح مدينة دِمَشْق ، فانتقل اليها فى خدمته ، وأقام كذلك الى أن جَرَت الكائنةُ المشهورة على الملك الصالح وخرجت عنه دمشق وخانه عسكره وهو بنَابُلُس وتفرقوا عنه ، وقبض عليـه الملكُ الناصر داود صاحب الكَرْك وآعتقله بقلعـة الكرك . وأقام بهاء الدين زهير بنابلس وفيًّا لصاحبه ، ولم يتّصـل بغيره ؛ ولم يزلْ على ذلك حتى خرج الملك الصالح وملك الديار المصريّة ، فعاد اليها فى خدمته ، وذلك فى أواخر ذى القعدة سنة ٦٣٧ ه .

ويقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة : إن البهاء زهيراً دام فى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيّوب الى أن تُوُفِّى الملك الصالح .

وفى صبح الأعشى : أن الملك الصالح نجم الدين أيوب حين تولَّى ملكَ مصر وَلّى ديوان الإنشاء الصاحبَ بهـاءَ الدين زُهَيراً ، ثم صَرَفه ووَلّى بعدَه الصاحبَ فخرَ الدين بن لُقمان الأسْعَرْدى ، فبقِى الى انقراض الدولة الأيّوبيّة .

وفى حسن المحاضرة : ثم وُلّى ديوانَ الإنشاء الصاحبُ بهاء الدين زهيرٌ الشاعر المشهور ، ثم صُرِف ووُلّى بعدَه الصاحبُ فخرُ الدين إبراهيم بن لقمان الأسعردىّ وأقام الى انقراض الدولة الايّوبية .

ولعلّ الصحيحَ أن بهاء الدين زهيرًا بقِىَ فى خدمة الملك الصالح الى أن مات الملك الصالح فى شعبان سنة ٦٤٧ ؛ فقد ذكر المؤرِّخون أنّه فى سنة ٦٤٦ حدث للملك الصالح نجم الدين ورَمٌ فى باطن رُكبته تكوّن منه ناسور عَسُر برؤه وانضاف اليه قَرحة فى الصدر، فلزم الفِراش ؛ إلّا أنّ علوّ هِمّته اقتضى مسيره من ديار مصر الى الشام ، فسار فى مِحَفّة ونزل بقلعة دِمَشْق ، ثم خبّره مُخبر أن رُوَادِ فرَنْس(١) عازم على المسير الى أرض مصر وأخذها ؛ فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى مِحَفّة ونزَلَ بأُشْمُوم طَنَاح فى المحرّم سنة ٦٤٧ وأعدّ العُدة للكِفَاح عند دِمياط ، وفى أواخر صفر وردتْ جيوش العدوّ ، و بعث ملكهم الى السلطان كتابَ تهديد ووعيد ، هذا نصّه :

” أمّا بعدُ ، فإنه لم يخفَ عليك أنى أمينُ الأُمةِ العِيسويّة ، كما أنه لا يخفَى علىّ أنّك أمينُ الأمة المحمدية .

وغير خافٍ عليك أن عنـدنا أهلَ جزائرِ الأندُلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوقَ البقر ونقتّل الرجال

(١) روادفرانس أو ريد فرانس : تعريب للفظ الفرنسى Roi de France بمعنى ملك فرانسا . ومؤرخو العرب يجعلون ذلك علما على لويس التاسع الذى كان يقود الحرب الصليبية السابعة .

ونرمّل النساء ونستأثر بالبنات والصِّبيان ونُخلى منهم الديارَ؛ وأنا قد أبديتُ لك الكفايةَ، وبذلتُ لك النصيحةَ الى الغاية والنهاية؛ فلو حلفتَ لى بكلّ الايمان، وأدخلتَ علىّ القسُسَ والرُّهبان، وحملتَ قُدّامى الشمعَ طاعةً للصُّلْبان، لكنتُ واصلاً اليك، وقاتلك فى أعزّ البقاع عليك؛ فإما أن تكون البلادُ لى فيا هديةً حصلت فى يدى، وإمّا أن تكون البلادُ لك والغلبة علىّ، فيدُك اليمنى ممتدّةٌ الىّ؛ وقد عرّفتــك وعرفت ما قلتُ لك، وحذّرْتك من عساكر حضرتْ فى طاعتى تملأُ السهلَ والجبلَ وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء ".

فلمـا قُرِئَ الكتابُ على السلطان وقد اشـتدّ به المرض بَكَى وآسترجع؛ فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد الجواب :

" بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعـدُ، فإنه وصـل كتابُك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، ونحن أرباب السـيوف، وما قُتل منا قِرْنٌ إلّا جدّدناه، ولا بَغَى علينا باغ الا دمّرناه . فلو رأت عينُك أيها المغرورُ حدّ سيوفنا وعِظَمَ حروبنا، وفَتْحَنا منكم الحصونَ والسواحل، وتخريبَنا ديار الأواخر منكم والأوائل؛ لكان لك أن تَعَضّ على أناملك بالندَم، ولا بدّ أن تَزِلَّ بك القدم، فى يوم أوّلُه لنا وآخره عليك؛ فهنالك تسيء الظنون ﴿ وَسَـيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ

مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ . فإذا قرأتَ كتابى هـذا فتكون منه على أوّلِ سورة النحل : ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ، وتكون أيضا على آخر سورة ص : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ونعود الى قوله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ . وقول الحكماء : «إنّ البَاغِى لَهُ مَصْرَعٌ» . وبَغْيُك يَصْرَعك ، وإلى البلاء يُسلمك . والسلام" .

فالبهاءُ زهير كان فى خدمة الملك الصالح فى أواخر صفر من سنة ٦٤٧ ، وتوفى الملك الصالح فى أواسط شعبان من تلك السنة بعد أشهر قضاها فى مرض مستمرّ وفى جهادٍ لم يكن كلُّه مظفَّرا .

بعد هـذا الفَرْض الذى أدّى بنا الى ترجيح أنّ البهاء زهيرًا ظَل مُتّصـلا بالملك الصالح الى أن مات الملك الصالح ، وجدنا فى كتاب تاريخ العينى[1] (الموجود فى دار الكتب المصرية ، بالفتوغرافيا ج ١٩) ما يدلّ صريحًا على أنّ الملك الصالح صرف البهاء زهيرا من خدمته قبل موته بقليل ، فرأينا أن ننقل هـذا النص عن نسخة دار الكتب المصرية :

" قلت : وذكر القطب اليونينى فى كتابه الذيل على مرآة الزمان ، قال فى ترجمة البهاء زهير كاتب الملك الصالح ، قال : فلما خرج الملك الصالح بالكرك من الاعتقال وسار الى الديار المصرية

(١) هو كتاب عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ — ١٤٥١ م .

كان بهاء الدين زهيرٌ المذكور فى صحبته ، فأقام عنده فى أعلى منزلةٍ وأجلّ مرتبـةٍ ، هو المشار اليه فى كُتَّاب الدرج والمتقدّم عليهم ، وأكثرهم اختصاصا بالملك الصالح واجتماعًا به . وسيّره رسولاً فى سنة خمس وأربعين وستمـائة الى الملك الناصر صـلاح الدين يوسف صاحب حلب ، يطلب منه إيفاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل اليه ، فلم يجب الى ذلك وأنكر الناصر هـذه الرسالة غاية الإنكار وأعظمها واستصعبها ، وقال : كيف يَسَعنى أن أسيّر عمه اليه وهو خال أبى وكبير البيت الأيّوبىّ حتى يقتله وقد استجار بى ! وأشهد أننى لا أفعلها أبداً . ورجع البهاء زهير الى الملك الصالح نجم الدين هذا بهذا الجواب ، فعظم عليه وسكت على ما فى نفسه من الحنق .

وقبـل موت الملك الصالح نجم الدين أيّوب بمُدَيْدة يسـيرة ، وهو نازل على المنصورة ، تغيّر على بهاء الدين زهير وأبعـده لأمرٍ لم يطلع عليه أحدٌ . قال : حكى لى البهـاء زهير أنّ سبب تغيُّره عليـه : أنه كتب عن الملك الصالح كتابًا إلى الملك النـاصر داود صـاحب الكرك ، وأدخل الكتاب الى الملك الصالح ليعلِّم عليـه على العادة ، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطّه بين الأسطر: « أنت تعرف قلة عقل ابن عمى ، وأنّه يحبّ من يَصِـله ويُعطيه من يده ، فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » ، وسيّر الكتابَ إلى البهاء زهـير ليغيّره والبهاء زهير مشغول ، فأعطـاه لفخر الدين

إبراهيم بن لقمان فأمَره بختمه نختمه وجهّزه إلى الناصر على يد نجّاب ولم يتأمله ، فسافر به النجّاب لوقته . واستبطأ الملك الصالح عودَ الكتّاب إليه ليعلّم عليه ، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيرا بعد ذلك وقال له : ما وقفتَ على ما كتبتُه بخطّى بين الأسطر ؟ قال البهاء : ومَنْ يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه ! وأخبره أنه سيّر الكتّاب مع النجّاب ؛ فقامت قيامةُ السلطان ، وسيّروا فى طلب النجّاب فلم يدركوه ، ووصل الكتّاب الى الملك الناصر بالكرك ، فعظُم عليه وتألّم له .

ثم كتب جوابه الى الملك الصالح وهو يعتب عليه فيه العتب المؤلم و يقول له فيه : «والله مابى مايصدر منك فى حقى ، و إنما بى اطّلاع كتّابك على مثل هذا» ؛ فعزّ ذلك على الملك الصالح وغضِب على بهاء الدين زهير ، و بهاء الدين لكثرة مروءته ينسب ذلك الى نفسه ولم ينسبه لكاتب الكِتّاب وهو فخر الدين بن لقمان رحمه الله تعالى .

قال : وكان الملك الصالح كثير التخيّل والغضب والمؤاخذة على الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهم ، لا يُقيل عثرة ، ولا يقبل معذرة " .

و يلاحظ أن ديوان البهاء زهير خِلْوٌ من رثاء الملك الصالح وخِلو من مدائحه إلّا قليلا .

كان بهاء الدين زهير كاتبَ ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح أو كاتب السرّ : وديوان الإنشاء فى عهد الدولة الأيوبية كان عظيما معتنى به ، وكان لا يتولّاه إلا أجلّ كتّاب البلاغةِ ، ومتولّى رتبة كتابةِ السرِّ أعظم أهلِ الدولة .

ومن وظيفة كاتب السرّ قراءة الكتب الواردة على السلطان ، وكتابة أجوبتها ، والجلوس لقراءة القصص بدار العَدْل ، والتوقيع عليها ، وتصريف المراسيم صدورًا وورودًا .

وكانت تجمع كتابةُ السرّ الى الوزارة تارةً ، كما فعل ذلك صلاح الدين الأيُّوبىّ مع القاضى الفاضل ، وتنفصل عنها أخرَى كما استمر عليه العمل بعد القاضى الفاضل .

ويقول بعض المؤلفين : إن بهاء الدين زهيرا كان وزيراً للملك الصالح نجم الدين أيّوب ويلقِّبونه بالصاحبِ بهاء الدين زُهَير . والصاحب لَقَبٌ للوزير إذا كان من أرباب الأقلام . على أن بهاء الدين زهيرا وإن لم يكن وزيرا فقد كانت رتبتُه ، وهى رياسة ديوان الإنشاء ، تُقاسم الوزارة جاهَها ومجدَها فى عهد الأيّوبيّين ، وربما كانت أوفَى منها مجدًا وجاها . ومع هذه المكانةِ العالية فإن البهاء زهيرا مات فقيرا . وفى آخر عمره ، كما فى تاريخ أبى الفداء وتاريخ ٱبن الوردى ، ٱنكشف حالُه حتّى باع موجودَه وكُتُبَه وأقام

فى بيتــه بالقاهرة حتى أدركه أجلُه . وأجمع المترجمون له على أنه كان ذا مروءةٍ ولُطفٍ ومكارم أخلاقٍ ، وقــد كان متمكنا من صاحبه الملك الصالح ولايتوسّط عنده إلّا بالخير، ونَفَع خلْقًا كثيراً ، و بلغ من الرِّفعَة ما لم يبلغه غيره .

والقارئ لشعر البهاء زهير يحسّ بمـا فى نفس الشاعر من رقة وحسن ذوق و بعد عن الشرّ والأذَى . ومما يدلّ على لُطف رُوحه أنّه قلما يهجُو بغير الوَصْف بالثِّقَل فيقول :

وَثقيـــلٍ كأنّمـا ... مَلَكُ المـــوتِ قُرْبُه
ليس فى الناسِ كلّهمْ ... مَن تراه يحبّـــهُ
لوذكرتَ اسمه على المـا ... ءِ لمـا ساغ شربُه

و يقول :

وجَليسٍ ليس فيـهِ ... قَطُّ مثل الناسِ حِسُّ
لِىَ منـه أينمـا كنـ ... ـتُ على رَغْمِىَ حبسُ
ما له نفسٌ فتنهـا ... ه،وهل للصخر نفسُ
إنّ يومًا فيـه ألقا ... ه ليـومٌ هو نَحْسُ

و يقول :

رُبَّ ثقيلٍ لبغض طلعته ... أخشاه حتى كأنه أجَلِى
وكلما قلتُ لا أشاهــده ... ألقـاه حتى كأنه عملى

ويقول :

يا ثقيــلًا لِىَ مِنْ　　رؤيتِــه همٌّ طويلُ
وبغيضًا هــو فى الحلـ　　ـقِ شجىً ليس يزولُ
كلُّ فضلٍ فى الورَى　　أضعافه فيك فضول
كيف لى منك خلاصٌ　　أين لى منــك سبيلُ
حار أمرى فيك حتى　　لستُ أدرى ما أقولُ
أنت واللهِ ثقيــلٌ　　أنت والله ثقيــلُ

ويقول :

والله لو لا خيفةُ التثقيــلِ　　زرتُكَ فى الضحَى وفى الأصيلِ
لكن أرى التخفيفَ عن خليلِى　　ولستُ فى العِشرة بالثقيــل

و يقول :

وثقيــلٍ ما بَرِحْنا　　نتمنَّى البعــدَ عنــه
غاب عنا ففَرِحنا　　جاءنا أثقلُ منــه

والقارئ لديوانه يشــعرُ بإباء وعِزّة لم تُلِنْهما إلّا صولة الفقر فى عهد الشباب الأول لشاعرنا ، حينما كان يلتمس من الأمير اللاطىّ وغيرِه عونًا ، فى لهجة تكاد تكون تذلُّلا لم يعرِفْه بعــد ذلك شــعرُ البهاء زهير .

وإذ قد وصلنا الى شــعر البهاء زهير فقد وصلنا الى الجــانب المهمّ من بحثنا ، فانّ البهاء زُهَيرًا الشاعر المصرىّ هو مدار حديثنا

لا البهاء زهيرا من حيث هو صاحب ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيّوب .

ولقد كان الشعر العربىّ قد جَمَد فى صُوَره وأساليبه وموضوعاته فىالقرون الأخيرة من العصر العباسىّ بتحكُّم الأعاجم فى شؤون الدولة وقلّة تشجيعهم للشعراء، و بتوالِى الفِتَن على الممالك الإسلامية، ثم آنتعش الشعرُ فى وادى النِّيل مدّة الفاطميّين (٣٥٨ — ٥٧٦) الذين كان لهم باللغة العربيـة عناية عظيمة ، وفى عهد الأيوبيين (٥٧٦ — ٦٥٠) الذين راجت فى عهدهم القصير فنون العلم والأدب وازدهرت المدنية .

وفى هـذا العهد نشأ البهاء زهير ووَسِعَ شـعرُه كلَّ ما أنتجت مدنية ذلك العهد من ثمرات .

قال هُيَار فى كتابه الأدب العربى :

" إن شعر بهاء الدين زهير المهلَّبى كاتب السرّ فى الدولة المصرية يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التى صقلتها مدنية خلفاء صلاح الدين الزاهيـة " .

وفى ترجمـة ابن خلكان للبهاء زهير ما يدلّ على أن شعرَ بهاء الدين زهير كان مجموعًا فى حياته متداولًا بأيدى النـاس . قال ابن خلكان فى تلك الترجمة :

” وشعره كلّه لطيفٌ، وهو كما يقال السهل الممتنع . وأجازنى روايةَ ديوانه، وهو كثير الوجود بأيدى الناس ... الخ “ .

وفى النسخ الخَطِّيّة الموجودة بدار الكتب المصرية من هـذا الديوان ما يدّل على أنّ بعض تلامذته جمـع شعره وزاد فيـه على ما فى ديوانه . ففى آخر صحيفة من نسـخة خطيّة (رقمهـا ٢٠٥١ أدب) ما نصه :

” قال جامع هذا الديوان ، وهو تلميـذ الشيخ : هـذا آخر ما وجدت من شـعر أبى الفضل زهير بن محمد بن على المهلّبى رحمه الله وأثابه الجنة بمَنِّه وكرمه “ .

وفى هذه النسخة مقدّمة جاء فيها :

” كل ما كُتِب فى هـذا الديوان وقلتُ قال رحمه الله، فإنى كتبتُه بعد موته رحمـه الله بدِمَشْق المحروسـة حماها الله تعـالى فى جمـادى الأولى من شهور سـنة سبع وستين وستمائة ولم أسمعه منـــه “ اهـ .

وتوجد نسخة خطيّة أخرى أوّلُها :

” أمّا بعدَ حمد الله على مزيد آلائه ، وشكره على ما تفضّل به من جزيل جزائه “ وبعد كلام : ” أحببت أن أجمـع ما وجدتُ من كلامه مستعينا بالله“. كتبت هذه النسخة سنة ١٠٠٢ وليس

فيها ما يدل على اسم جامعها إلا أنّ بآخرها : "من نعم الله على العبد الفقير محمد بن محمد اليمانى" . وورد فى طبعة پلمر، التى سيأتى ذكرها، ببعض الهوامش : " أن الذى جمع ديوان بهاء الدين زهير بعد وفاته هو شرف الدين، وأن ذلك مذكور فى نسخة حسنة موجودة بمكتبة اكسفورد عليها اعتمد الطابع فى التصحيح . وشرف الدين هذا هو أبو العبّاس أحمد بن محمد بن أبى الوفاء بن خطاب المعروف بابن الحلاوى المَوْصِلِىّ الأصلِ الدِّمَشْقى المولد والدارِ .

وقد ذكر ابن خلكان أنّ شرف الدين المذكور لَقِىَ البهاءزهيرا فى بلاد الشام ومدحَه . وفى الديوان قصيدة أرسلها البهاء زهير الى شَرَف الدِّين تعزيةً له فى أخيه سنة ٦٤١ .

وقد طبع ديوان البهاء زهير منذ عهد قديم بمصر وأعيد طبعه مرارًا، وطبع فى بيروت وغيرها . وأوّل طَبَعاته طبعة حَجَرية بمصر سنة ١٢٧٧ هـ وتليها طبعة حجرية أخرى سنة ١٢٧٨ هـ بمصر .

وطبع هذا الديوان بكمبردج سنة ١٨٧٦ فى مجلدين : الأوّل منهما فيه الديوان مع تعليقات وهوامش، وفى أوّله مقدّمة تشتمل على ما للشعر من منزلة سامية عند العرب، وعلى ترجمة صاحب الديوان . والثانى ترجمة للديوان بالانجليزية منظومة شعرا وعليها

شروح ، طبعه أدور هنرى پالمر مدرّس اللغة العربيـة بمدرسة كمبردج الذى قتله بعض العرب ببادية طورسينا سنة ١٨٨٢ أثناء الحوادث العرابية .

ويقول صاحب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » : إن ديوان البهاء زهير طبع أيضا فى باريس سنة ١٨٨٣ مع القراءات المتنوعة للمتن الأصلى العربىّ .

* * *

كانت للشعر نهضة ، كما قلنا ، فى عهد الفاطميين فالأيّوبيين ، والبهاء زهير من أئمة النهضة الشعريّة فى عصر بنى أيّوب .

وعبقريّة البهاء زهير فى هذه النهضة تتجلّى من نَواحى ثلاث :

(١) ناحية الأسلوب .

(٢) « الأوزان .

(٣) « الموضوعات التى يتناولها الشعر .

الناحية الأولى ناحية الأُسلوب : كان عصر البهاء زهير من جهة اللّغة شبيها بعصرنا هذا ، ففيه لهجة يستخدمها الناس فى معايشهم ومعاملاتهم ، ويعبّرون بها عن أفكارهم وعواطفهم فى حياتهم اليوميّة ؛ ولهم لهجةٌ أخرى لا يلجئون اليها إلا اذا عالجوا النظم أو حاولوا الإنشاء . كانت لغةُ الحياة فى شَتّى مظاهرها لغةً ملحونةً ، ولكنها تُساير الحياةَ فى حركتها وانتقالها ، وتصل بسهولة الى أفهام

العامّة والخاصّة. وكانت لغةُ الشعر والكتابة لغةً مستقيمةَ الإعراب تتسامَى عن التبذُّل للعامة، وتحاول أن تتّصل بأساليب الشعر القديم والنثر القديم، باعتبار تلك الأساليب قوالبَ ينبغى أن يُصَبَّ فيها شعرُ ما يتلو من العصور ونثره. ووُجد من الشعراء والكتّاب مَنْ كان همّه أن يزيد لغـة القريض والإنشاء تعاليا على لغة العامّة: باختيار العبارات الجَزْلة القليـلة الاستعمال البعيدة عن الابتـذال، وبالتأنّق فى تزيين الأساليب الشعريّة والنثريّة بالمحسِّنات البديعيـة التى قد يكون لبعضها تقديرٌ من الجهة الصناعية؛ لكنها بعيدة عن جمال البيان والوضوح.

أمّا البهاء زهير فجاء بمذهب جديد، فجعل لغة الحياة الجـارية فى بَسَاطتها ومُرونتها لغةً للشعر بعد تطبيقها على قواعد الاعراب وتقويم مافيها من اللّحن جهد المستطاع؛ وجَرَى على ذلك فيما كانت تجيش به نفسه وتفيض به عواطفه من فنون الشعر.

وشعر البهاء زهير كما هو مرآةٌ صادقة لعَصْره بما فيه من فيض الطبع والبعد عن التكلُّف، هو أيضا مرآةٌ لعصره من حيث اللغة والتعبير. والروحُ المصرىُّ يتجلَّى فى هذا الشاعر القوصىّ الصعيدىّ بأكثر ممـا يتجـلَّى فى أىّ شاعر مصرىّ عرفنـاه فى القـــديم والحـــديث.

وللبهاء زهير فى بعض قصائده تشوّقٌ الى الصعيد :

أحِنّ اليكم كلَّ يومٍ وليلةٍ وأهذى بكم فى يَقْظتى ومنامى
فلا تُنكروا طِيبَ النسيم اذا سَرَى اليكم فذاك الطيبُ فيه سلامى
فهل عائدٌ منكم رسولى بفرحةٍ كفرحةِ حُبلَى بُشّرت بغُلامِ
ويرتاح قلبى للصعيد وأهلِه وعيشٍ مضى لى عندكم ومُقامِ
وأهوَى ورودَ النِّيل من أجل أنَّه يمرّ على قومٍ لدىّ كرامِ

ويطول بنا القول لو أردنا أن نستقصى فى شعر البهاء زهير نفحات مصريّته فى التعبير والذوق ، ودلائل دِيمقراطيته فى اللغة وان كان أرِسْتُقْراطىّ المَنَازع والأخلاق .

على أننا نذكر لذلك نماذج نُحيل على ديوانه لاستيفائها .
ولا يفوتنا أن نشير الى أن من نفحات المصرية فى أسلوب البهاء زهير كثرة الحَلِف فى شعره ، فقلما تخلو قصيدة له من يمين ، حتى ليقول :

ووالله ما فارقتكم من ملالة ووالله ما أحتاج أنِّىَ أحلِفُ

* * *

لعلكمُ قد صَدّكم عن زيارتى مخافةُ أمواه لدمعى وأنواء
فلو صدَق الحبُّ الذى تدَّعونه وأخلصتم فيه مشَيتم على الماء
وإن يك أنفاسى خَشيتم لهيبَها وهالتكمُ نيرانُ وجدٍ بأحشائى
فكونوا رفاعيين فى الحبّ مرةً وخوضوا لظى نار لشوقى حَرّاء
حُرِمتُ رضاكم إن رَضِيت بغيركم أواعتضت عنكم فى الجنان بحَوْراء

* * *

قلــبى لديك فكيف أنـ ... ـتَ على البِعادِ وكيفَ قلبى ؟

* * *

فيا صاحبى مالى أراك مفكراً ... وحَتّامَ، قُلْ لى، لاتزال كئيبا

* * *

قال لى العـاذل تسلو ... قلت للعـاذل تتعبْ

أنا بالعـاذل ألهــو ... أنا بالعـاذل ألعبْ

ليس فى العُشّاق إلا ... مَنْ يُغَنِّى لى وأشرب

* * *

أُحدِّثه اذا غفـــل الرقيبُ ... وأسـألُه الجوابَ فلا يُجيبُ

وأطمعُ حين أعطفه عسـاه ... يَلين لأنه غُصنٌ رطيبُ

ويَخفقُ حين يُبصره فؤادى ... ولا عَجَبٌ اذا رَقَص الطَّروبُ

فيا مولاى قل لى أىُّ ذنب ... جنيتُ لعلّنى منـــه أتوبُ

حبيبٌ أنت قل لى أم عدوٌّ ... ففعلُك ليس يفعـله حبيبُ

* * *

أنا فيما أنا فيــه ... وعـــذولى يتعتَّبْ

أنا لا أُصْغى لمـا قا ... لَ فيَرْضَى أو فيغضبْ

يا حبيبى ونديمى ... واللّيـالى تَتَقــلّبْ

هاتِ فيما نحن فيــه ... ودَعِ العـاذلَ يَتعَبْ

* * *

أَرى قوماً بُليتُ بهمْ ... نصيبى منهـــمُ نَصَبِ

فمنهـم من يُنَافِقُـنى ... فيكذبُ لى ويحلف بِى

ويُلزِمنى بتصـديق الذى قد قال من كـذبِ

وذو عُجْبٍ اذا حدثـ تُ عنه جئتُ بالعَجَبِ
وما يدرى بحمـد اللـ ـهِ ماشعبانُ من رجب
وما أبصرتُ أحمقَ منـ ـه فى عُجْمٍ ولا عَرَبِ
وأحمقَ قد شَقِيتُ به بلا عقـلٍ ولا أدَبِ
فـلا ينفـكّ يَتبَعُنِى و إن أمعنت فى الهَرَبِ
كأنّى قـد قَتلتُ له قتيـلًا فهـو فى طلبِى
لأمرٍ مَا صَحِبتُهُـمُ فلا تسأل عن السّببِ
يحسن عقلنا أنّا نصيدُ البازَ بالخَـرَبِ(١)
وكنا قـد ظننّا الصُّفْـ ـرَ عند النقد كالذّهبِ(٢)
فـلم نظفَرْ بحاجتنا وأشفينا على العَطَبِ
رَجَعنا مثـلَ ما رُحنا ولم نَربَحْ سوى التعبِ

* * *

وزائرة زارت وقد هجم الدُّجا وكـنت لميعادٍ لهـا مترقّبَا
فـا راعنى إلّا رَخـيمُ كلامها تقول حبيبى قلتُ أهلًا ومَرْحَبا
فقبلت أقداماً لغيرى مامشت ووجهاً مَصُوناً عن سواى محجّبَا

---

(١) الخرب (بفتحتين) : ذكر الحبارى ، والحبارى طائر معروف ، وهو على شكل الإوزة برأسه و بطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا . وهو من الطيور الضعيفة ، ومن أمثالهم : ''ما رأينا صقرا يرصـده خرب'' يضرب للشريف يحاول أن يقهره الوضيع .

(٢) الصفر : نوع من النحاس .

ولم يرعيني ليلةً مثلَ ليلتي فياسَهرى فيها لقد كنتَ طيّبا
سأشكر كلَّ الشكر إحسانَ محسنٍ تَحَيَّلَ حتى زارنى وتسببَا
حبيب لأجلى قد تَعَنَّى وزارنى وما قيمتى حتى مشى وتعذَّبَا

* * *

كم ذا التصاغرُ والتصابِى غالطتَ نفسَك فى الحساب
لم يبق فيك بقيةٌ إلا التعلّل بالخضاب
لا أقتضيك مودّةً رُفِعَ الخراجُ عن الخَرَاب
ما العيش إلّا فى الشبا بِ وفى مُعاشرة الشّباب
ولقد رأيتُك فى النقاب وذاك عُنوان الكتّاب
وسألت عمّا تحتَه قالوا عِظامٌ فى جرابِ
وسمعتُ عَنْكِ قضيّةً سارت بها أيدى الرِّكاب
هَذَا وكم من وَقْفة لكِ فى الأزقّة للعِتاب
واليومَ قالوا حُرّةٌ ستّ الحرائر فى الحجاب
وأردتُ أنطِقُ بالجوا بِ فلم يكن وقت الجواب
يا هذه ذهبَ الصِّبا فإلى متى هذا التَّصابِى
ما هذه شِيم الحرا ئر لا ولا شِيَمُ القِحاب

* * *

لاتَطَّرِحْ خامِلَ الرجالِ فقدْ تحتاجُ يومًا الى كفايَتِه
فالِيَكٌ فى النَّرْدِ وهو محتقرٌ خيرٌ من الشّيْش عند حاجتِه (١)

(١) والبيت فى طبعة بلمر هكذا :
فاللين فى البرد وهو محتقر خير من اليبس عند حاجته

* * *

يُعاهدنى لا خاننى ثم ينْكُثُ
وأحلفُ لا كلّمتُــه ثم أحنَثُ
وذلك دأْبى لا يزالُ ودأبُه
فيـا أيّهـا الناس اسمَعُوا وتحدّثوا
أقول له صِلْنى ، يقول نعم غــدًا
ويَكسِر جَفْنًـا هازئًا بى ويَعْبَثُ
وما ضرّ بعضَ الناس لو كان زارنى
وكنّا خلونا ساعةً نتَحـدّثُ
أمولاى إنى فى هواك معــذب
وحتّامَ أبقى فى العـــذاب وأمكث
فخذ مرة روحى تُرِحْنى ولم أكن
أموت مرارًا فى النهـارِ وأُبْعَثُ

* * *

صديقٌ لى سأذكُره بخـيرٍ — وأعرِفُ كنهَ باطنِه الخَبيثا
وحاشا السامعين يقال عنه — و بالله اكتموا هذا الحديثا

* * *

مولاىَ من سكرِ الدلال عَبِثْـ — ـتَ والسكرانُ عابثْ
ونَكَثتَ عهدًا فى الهَـوَى — ماخِلتُ أنّك فيــه ناكثْ
لك لا أشُــكُّ قضيّةٌ — أنا سائلٌ عنهـا وباحثْ

عَتَبَ الحبيبُ فلم أجِدْ سبباً لذاك العَتْبِ حادثْ
واليوم لى يومان لم أره وهـذا اليوم ثالث
ما كنتُ أحسب أنه ممن تُغَيّره الحوادثْ
ويَلَذُّ لى العَتْبُ الذى صِدْقُ الودادِ عليه باعث

* * *

وعائد هـو سـقمٌ لكلّ جسمٍ صحيح
لا بالإشارةِ يدرى ولا الكلام الصريح
وليس يخرج حـتى تكاد تخرُجُ رُوحى

* * *

وغادةٍ بوَصْلها مُسامِحَـهْ تحفَظُ ودّى مثلَ حفظِ الفاتحه
وفَتْ بوعدٍ ثم قامتْ رائحَـه فياصحابى فى الخطوب الفادحه
هَبْكُمْ رَحِمْتم لِىَ نفساً طائحه هَبْكُمْ أعنتم بدموعٍ سافحه
ما تفعلُ الثَّكْلَى بنَوْح النائحة

* * *

أتتك وإن كانت كثيراً تأخرت فانك تعفو عن كثير وتصفح

* * *

أيها الغافل الذى ليس تُجدى كثْرةُ اللوم فيـه والتوبيخ
إنهـا غفـلة لك الويل منهـا ما رواها الرواة فى التـاريخ
وكما قيـل هَبْ بأنك أعمَى كيف تخفَى روائح البِطّيخ

* * *

وحيثما كنتَ كنتَ مولًى وحيثما كنتُ كنتُ عبدَكْ

* * *

وياليت عندي كلَّ يومٍ رسولَكم فأُسْكنَه عيني وأُفْرِشَه خَدِّي
وإني لأرعاكم على كل حالةٍ وحقِّكمُ أنتم أعزُّ الورى عندي
عليكم سلامُ الله والبعدُ بيننا وبالرغمِ مِنّي أن أُسَلِّمَ من بُعدِ

* * *

بحق الله متِّعْـ ـنِي من وجهك بالبُعد
فما أشوقني منك الى الهِجْران والصَّدِّ
فما تصلُح للهزلِ ولا تصلُح للجِدّ
وماذا فيك من ثِقْلٍ وماذا فيك من بَرْد
فلا صُبِّحتَ بالخيرِ ولا مُسِّيتَ بالسَّعدِ

* * *

وليلة ما مثلُها قَطُّ عُهِدْ مثل حشا العاشق باتت تَتَّقِدْ
طلبتُ فيها مُؤْنِسًا فلم أجِدْ بِتُّ أُقاسِيها وحيدًا منفرِدْ
طالت فأمّا صبحُها فقد فُقِدْ فتحبَلُ المرأةُ فيها وتلِدْ

* * *

ووعدتني يومَ الخميـ ـس فلا الخميس ولا الأحَدْ
واذا اقتضيتُك لم تزد عن قول إي والله غَدْ
فأعُدُّ أيامًا تَمُـ ـرّ وقد ضَجِرتُ من العَدَدْ
وتقول أوصيت الخطيـ ـبَ فهل نَفَوْهُ من البلدْ
واذا اتّكلت على الخطيـ ـبِ فما اتّكلت على أحدْ

* * *

تَوَقَّ الأذَى من كل نَذْلٍ وساقط فكم قد تأذَّى بالأراذل سيِّدُ
ألم تر أنّ الليثَ تُؤذِيه بَقَّةٌ و يأخذ من حَدِّ المُهَنَّدِ مبرد

* *

هــذه أول حاجاتى اليكا وبها أعرِف مقدارى لديكا

سـيِّدى قلبِىَ عنـدكْ سيِّدى أوحشتَ عبدَكْ
سـيِّدى قُلْ لِى وحدِّثْ نى متى تُنجِــز وعدَك
أتُرَى تذكرُ عهـدِى مثـلَ ما أذكر عهـدَكْ
أم تُرَى تحفَـظُ ودِّى مثـلَ ما أحفـظ ودَّكَ
قُمْ بنـا إن شئتَ عندى أو أكنْ إن شئتَ عندك
أنا فى دارِىَ وحــدِى فتفضَّـلْ أنت وحدَكْ

أيــن مولاى يرانى ودموعى فوق خَدِّى

وجليسٍ حديثُـه لِلْمَسرّاتِ طـاردُ
مثلُ ليل الشتاءِ فَهْــوَ ثقيــلٌ و باردُ

* * *

فلا تُرخِصوا ودًّا عليكم عَرضتُه فيارُبَّ مَعْروضٍ وليس بكاسدِ
وحقِّكمُ عندى له ألفُ طالبٍ وألفُ زَبونٍ يشــتريه بزائدِ
اذا كان هذا فى الأقارب فعلكم فماذا الذى أبقيتُم للأباعدِ

وَدِدتُ بأنّى ما رأيتُ وجوهَكم وأنّ طريقا جئتُكم منه مسدودُ

* * *

حَدِّثُوا عن طولِ ليلٍ بِتُّــه هل رأيتم ، هل سمعتم ، هل عُهِدْ

لا رعاه الله ما أطــوَلَه تحبَلُ المرأة فيه وتَــلِدْ

* *

لنا صديقٌ سيِّئٌ فعلُهُ ليس له فى النـاس من حامدِ

لو كان فى الدنيـا له قيمةٌ بِعْنـاه بالنـاقص والزائـد

* * *

يا غادرين ألم يكن بينى وبينكم عهودُ

ظهرتْ وبانتْ لى قَضيَّـ ـتُكم فما هـذا الجحودُ؟

وحلفتمُ ما خنتمُ وعلى خِيانتكم شهودُ

يا مَنْ تبدّل فى الهوى يَهْنِيك صاحبُك الجديدُ

إن كان أعجبك الصدُو د كذاك أعجبنى الصدودُ

وٱعلَمْ بأنّى لا أُريـ ـدُ اذا رأيتُك لا تُريدُ

وأنا القريبُ فإن تغيـَّ ـرَ صاحبى فأنا البعيدُ

يومٌ أُخَلّص فيه قلبـ ـى منك ذاك اليومُ عيدُ

وعساك تطلب أن أعـ ـودَ الى هواك فما أعودُ

ولقد علمتَ بأننى لى فى الهوى خُلُقٌ شديدُ

* * *

مولاىَ كنْ لِىَ وحدِى فإننى لك وحـــدَكْ

وكن بقلبـك عنــدِى فإنّ قلـبِى عنــدك

لى فيـك قصدٌ جميـلٌ لا خيّبَ اللهُ قصـدَك

حاشاك تُؤثر بُعْـدِى ولست أُوثر بُعــدك

إن تنسَ عهدى فانّى واللهِ لم أنسَ عهـدك

أضـعتَ ودَّ محبٍّ ما زال يحفَـظ ودّك

مالى عليـك اعتراضٌ أدّبْ كما شئتَ عبدك

مولاى إن غبتَ عنّى وا سوءَ حالِىَ بعـدَكْ

* * *

طلبتَ الجميعَ ففات الجميعُ فمن سوء رأيك لاذا ولاذا

* *

بالله قـل لِى خَبَرَكْ فـلِى ثلاثٌ لم أرَكْ

يا أسبقَ النـاسِ الى مودّتى ما أخّــركْ

وناظرى الى الطـريـ ـق لم يَزَلْ منتظرَك

بين جفونى والكرَى مذ غِبْتَ عنى مُعْتَرَكْ

كيف تغيّرتَ ومَنْ هذا الذى قـد غيَّرك

وكـيف يا معذّبى قطعتَ عـنى خبرَك

ومن غرامى كلّمـا لامَكَ قلبى عَـذَرك

والله ما خنتُ الهوى لك الضّمانُ والدَّرَك

وحقّ عينيك لقــد نَصَبتَ عينيك شَرَك

وحاسدٍ قال فما أبقى لنا ولا تَرَك
ما زال يسعى جهدَه يا ظَبْيُ حتَّى نَفَّرَكْ

* * *

قد سَرَّنى هذا الذى بى من ضَنًى إن كان سَرَّكْ
إن كان ذلك عن رِضًا كَ وقد علمتَ به فأمْرَك
أو كان قصدك فى الهوى قتلى يُطيل الله عمرَك
مولاىَ ما أحلاكَ فى قتل المحبِّ وما أمَرَّك
تِهْ كيف شئتَ من الجما ل فلستُ أجهَلُ فيه قَدْرَك

* * *

أصبحتُ لا شغلَ ولا مَزْرَعَهْ مُذَبْذَبًا فى صَفْقَةٍ خاسِرهْ
وجملةُ الأمرِ وتفصيلُهُ أصبحت لا دنيا ولا آخرهْ

* * *

ويأنَفُ الغدرَ قلبى وهو محترقٌ
النارُ والله فى هذا ولا العارُ
وليلةُ الهجرِ إن طالت وإن قَصُرتْ
فمؤنِسى أمَلٌ فيها وتَذْكارُ

ولهُ فى رثاء

يا واحدًا ما كان لى غيرهُ بعدَك واقِلَّةَ أنصارى
يا منتهى سُؤْلى ويا مُشْتَكَى حُزنى ويا حافظَ أسرارى

الدارُ من بعدك قد أصبحتْ ... فى وحشــةٍ يا مؤنسَ الدار
إن كنتَ قد أصبحتَ فى جَنَّةٍ ... إنِّىَ من بعـدِك فى نارِ

وقال يعاتب امرأة :

يا هــذه لا تَغلَــطِى ... واللهِ مالى فيـك خاطِـرْ
خدعوكِ بالقـول المُحـا ... لِ فصَحّ أنك أمُّ عامِرْ
أظننتِ لى قلبًـا عــلى ... هـذى الحماقة منك صابر
وسمِعتُ عنـكِ قضـيّةً ... قـــد سُطِّرتْ فيها دفاتر
نُقِلتْ الىّ جميعُهــا ... حتى كأنّى كنتُ حاضر
فمــتى أردتِ شرحتُهـا ... لك بالدلائل والأمائر
إن كنتِ أنت نسيتِهـا ... فَلَكَم لهـا فى الناسِ ذاكر
وسألت عنك فـلم أجِد ... لك فى جميع الناسِ شاكر
وزعمتِ أنكِ حــرّةَ ... ما هـــذه شِيَمُ الحـرائر
فاذا كَذَبتِ فــلا يكن ... كذبًا لكل الناسِ ظاهر

* * *

فإن متُّ فى ذا الحبِّ لستُ بأوّلٍ ... فقبلِىَ مات العاشقون كثيرُ

* * *

أنا ما لى على الجَفَـا ... لا ولا البعدِ مُصطَبَرْ
أنكرتْ مقلتى الكَرَى ... حين عرّفتهـا السَّهَر
فعسى منـك نظـرةٌ ... ربمـا أقنعَ النظـر

أيها المُعْرِضُ الذى لا رسولٌ ولا خبرْ
وجَرَى منه ما جَرَى ليته جاء واعتذر
كلُّ ذنبٍ كرامةً لمُحَيَّاك مغتفَرْ

* * *

قَصِّروا عمر ذا الجفَا طوّل الله عمرَكُمْ
شَرِّفونى بزورةٍ شرَّف الله قدركم
لو وصلتم مُحِبَّكم ما الذى كان ضرَّكم
مِتُّ فى الحبّ صبوةً أعظم الله أجركم

* * *

إنِّى أدِلُّ لأنِّى ضيفٌ ومملوكٌ وجارُ

* * *

ويا قمرَ الأُفْقِ عُدْ راجعًا فقد بات فى الروض عندى قمرْ
ويا ليلتى هكذا هكذا وبالله بالله قِفْ يا سَحَرْ
خَلَوْنا وما بيننا ثالثٌ فأصبح عند النسيم الخبر

* * *

أثرتَ الهوَى ثم تبكى أسًى فمنك الرياحُ ومنك المَطَرْ

لى حبيبٌ لا يُسَمَّى وحديثٌ لا يُفَسَّرْ
آهِ لو أمكننى القو لُ لعلِّى كنتُ أُعذَرْ
لستُ أرضَى لحبيبى أنّه للناس يُذْكَرْ

وهو معروفٌ ولكن هـــو معروفٌ منكَّرْ
هُـــوَ ظبيٌ فإذا ما سُمته الوصـلَ تَنَمّـــرْ
فترى دمعِيَ يجـرى ولسـانى يَتَعـــثَّرْ
سـيّدِى لا تُطِعِ الـواشِي وإن قال فأكثر
فحديثى غيرُ ما قـــد ظنّه الواشى وقَـــدَّرْ
إنّ ذنب الغَدْرِ فى الحـبِّ لذنبٌ لا يُكَفَّرْ
طالت الشكوى وملّ السـمعُ ممـا يتكـرّر
وانقضى عمرى وحالى هو حالى ما تَغَـــيَّرْ

* * *

أرِحْنى منـــكَ حتى لا أرى مَنْظَـــرَك الوَعْرا
فقــد صرتُ أرى بُعْدَ كَ عنِّى الراحةَ الكبرى
فمـا تنفعُ فى الدنيـا ولا تشـفَعُ فى الأُخرى

* * *

ليس يشـفى ما بقلبى منكمُ غير حضـورى
إنّ خَطْبَ البعدِ عنكم ليس بالخطب اليسيرِ

* * *

وليس اعتمادِىَ إلّا عليك فلا تُخْلنِى من جميلِ النظرْ

* * *

يا روضـةَ الحسنِ صِلِى فمـا عليـكِ ضَـيْرُ
فهـل رأيتِ روضـةً ليس بهـا زُهَـيرُ

* * *

وصاحبٍ جعلته أميرى　　أسكنته فى داخل الضميرِ
أودعته الخفىَّ من أُمورى　　فكان مثلَ النار فى البَخُورِ
صَحِبتُه ولم يكن نظـيرى　　قَدَّمتُه وهو يرى تأخيرى

* * *

ويومُ سرورِى يومَ أراك　　لأنى بوجهـك أستبشرُ

* * *

وترانى باكيًا مكتئبًا　　وتراه ضاحكًا مستبشرا
بعضُ ما ألقاه منـه أنه　　لا يزال الدهرَ بى مُستهترا
وافتضاحى فيـه ما أطيبَـه　　كان ما كان ويدرى مَنْ دَرَى

* * *

أوحشتَنى والله يا مالكى　　قطعتُ يومى كلَّه لم أرَكْ

* * *

وأحمقٍ ذى لِحْيـةٍ　　كبيرةٍ مُنتشـرهْ
طلبتُ فيها وجهَـه　　بشـدّة فـلم أرَهْ
تبًّا لهـا من لِحيـةٍ　　كبيرةٍ مُحتقَـرهْ
مُضحكة ما كان قـطُّ مثلهـا لَمَسْـخَرهْ
فلو مضى السوقَ بها　　وزَفّهـا بالمِـزْمَرَهْ
لحصَّلت له مُغَـلَّ ضَـيْعةٍ مُوَفَّـره

* * *

لكم عذركم ، أنتم سمعتم فقلتمُ ومُحتَمَلٌ ما قد سمعتم وجائزُ

* * *

قالوا فلان قـد غدا تائبا واليومَ قد صلّى مع الناسِ
قلتُ متى ذاك وأنّى له وكيف ينسَى لذّةَ الكاسِ
أمسِ بهذى العين أبصرتُه سكرانَ بين الورد والآسِ
ورحتُ عن توبته سائلا وجدتُها توبة إفلاسِ

* * *

يا مانعًا حُلْوَ الرِّضا وباذلًا مُرَّ السَّخَطْ
حاشاك أن ترضَى بأن أموتَ فى الحبّ غلطْ

* * *

يا كثيرَ الجميلِ مثلك مولًى يشـتريني جميـلهُ و يبيعُ

* * *

ملأتم فؤادى فى الهوى فَهْـوَ مُتْرَعٌ
ولا كان قلبٌ فى الهوى غير مترعِ
ولا عاذلى يَنْفَـكّ عنِّىَ إصـبعًا
وقد وقعت فى رُزّة الحب إصبعى

* * *

أرى قصدَه أن يقطع الوصلَ بيننا
وقد سلّ سيفَ اللحظ واللحظُ قاطعُ

فإنْ تتفضَّلْ يا رسولى فقلْ له
محبُّك فى ضيقٍ وحلمُك واسعُ
فوالله ما ابتلّتْ لقلبىَ غُلّةٌ
ولا نَشَفتْ منّى عليه المدامعُ
فلا تُنكروا منّى خضوعًا علمتمُ
فما أنا فى شىء سوى الحبِّ خاضعُ

* * *

فوق خَدَّيْه لنا وردةٌ فوق الصِّفهْ

* * *

ولَثِمتُ إكراماً له وجهَ الرسولِ وكَفَّهُ

* * *

دخلتُ مصرَ غنيًّا وليس حالى بخافى
عشرون حِمْل حريرٍ ومثل ذاك نصاف
وجملةٌ من لآلٍ وجوهرٍ شَفّافِ
ولى مماليكُ تُرْكٌ من المِلاحِ النِّظافِ
فرحتُ أبسُط كَفّى وبالجزيلِ أُكافى
وصرتُ أجمَعُ شملى بسالفٍ وسُلافِ
ولا أزالُ أَواخى ولا أزال أُصَافى
فصار لى حُرَفاءُ كانوا تَمامَ حِرَافى

وكل يومٍ خوانٌ من الجِدا والخِراف
فبعتُ كُلَّ ثمينٍ معى من الأصناف
وآستهلك البيعُ حتّى طَرّاحتى ولحافى
صرفتُ ذاك جميعًا بمصرَ قبلَ آنصرافى
وصرت فيها فقيرًا من ثروتى وعفافى
وذا خروجىَ منها جَوْعانَ عُرْيانَ حافى

* * *

وسائلُ عن وجدى بها وصبابتى فقلتُ أمَا يكفيك موتىَ فيك
وكانت تُسَمِّينى أخاها تعلُّلًا فقلتُ لقد أفسدتِ عقلَ أخيك

* * *

أرسلتُه فى حاجةٍ كالماء هَيِّنة المَساغ
فحَرَمْتُ حسنَ قضائها اذ لم يكن حسنَ البَلاغ
كالخمر يُرسَل للفؤا دِ بها وتَصعَدُ للدِّماغ

* * *

كم ألاقى منكَ مالَا أشتهى لاقيتَ حَيْنَكْ!
وعيونُ الناسِ تستحـ ـيى وما أوقح عينَكْ
لعن الله طريقًا جمعتْ بينى و بينَكْ

* * *

يا هاجرى يحقّ لكْ وجدتَ غيرى شَغَلكْ
و يا لسانَ الدمع فى شرحِ الهوى ما أطوَلَكْ

يأيها السائلُ عَنّى لا تَسَلْ عمن هَلَكْ
بِتُّ بليلٍ باته كُلُّ عدوٍّ لى ولكْ

* * *

أصبحَ عندى سَمَكَهْ وكِسرةٌ مُدَرمكه
أردتُ أن أُحْضِرَها على سبيلِ البَرَكه
تجعلها لِمَا يجى ءُ بعدَها محرَّكه

* * *

اذا كنتَ مشغولًا وذا يومُ جمعةٍ ففى أيّما يومٍ تكون بلا شغلِ

* * *

فَعَلتُ ما يَلزَمُنى فليتَ غيرى لوفَعَلْ

* * *

وكنتُ زماناً لا أقولُ فعلتُمُ ولكنّنى من بعدها سأقولُ
لَعَمْرِى لقد عَلّمتمونى عليكمُ وإنى اذا عُلّمْتُ فى قَبُولُ
سَيَنْدَمُ بعدِى من يُريد قطيعتى ويذكر قولى والزمانُ طويلُ

* * *

وما عيشُ الغريبِ بلا عِيالٍ كعيش القاطنين ذوى العيالِ

* * *

فاذا جئت وغابَ النّاسُ طُرًّا لا يَهُمُّهْ

* * *

ولولا احتقارى فى الهوى لعَوَاذِلِى صَرَفتُ لهم بالى ومِنّى ومِنهُمُ

* * *

كلما قلت آسترحنا جاءنا الشيخ الإمامُ
فاعـــترانا كلّنـــا منـ ـه انقبـاض وآحتشامُ
فَهْوَ فى المجلس قَـذْمٌ ولنـا فهـو فـدامُ
وعلى الجمــلةِ فالشـ ـيـخُ ثقيــلٌ والسلامُ

* * *

هُمْ عَلّموه فصار يهجُرنى رَبِّ خُذِ الحقَّ من مُعَلِّمِهِ

* * *

سَـــلِّمْ عَـــلَىَّ اذا مَرَرْ تَ فلا أقلّ من السلامِ
الغـــدْرُ فى كلِّ الطبـا عِ فلا أَخُصُّـك بالملامِ
ما أكثرَ العُـــذّالَ فى وَلَهِى عليـك وفى غرامى
هَبْـنِى كتمتُهُم هوا كَ فكيف أكتُمُهم سَقَامى

* * *

يأيهـا البـاذلُ مجهـودَه فى خدمةٍ أُفٍّ لها خدْمهْ
إلى متى فى تَعَبٍ ضائع بدون هذا تأكل اللُّقمه
تشقىَ ومَنْ تشقىَ له غافلٌ كأنّك الراقصُ فى الظُّلمه

* * *

بَرحَ الخفـاءُ وقلتُهـا منّى اليك بلا آحتشامِ
لم تَبْـقَ فيك بقيّـةٌ لا للحلالِ ولا الحرامِ

* * *

خَلَّيْتُ كلَّ الناسِ ماخَلاَ كُمُ ... وقلتُ ما لى أحدٌ سِـواكُمُ

وأنــتُم علىّ ما أجفاكُمُ ... خُلِقَ خُلْقِي دائمـا أرعاكم

وكل ما أسخطنى أرضاكُمُ ... والله لا أفلحَ مَنْ يهـواكُمُ

وبعد ذا سبحانَ من أعطاكُمُ

* * *

من رآنى يرقُّ لِى ... ضائعًـا فى يديكُمُ

كان ما كان بيننا ... وسلامٌ عليكُمُ

* * *

لعن الله حاجةً ... ألجأتنى اليكُمُ

وزمانًا أحالــنى ... فى أمورى عليكُمُ

فعسى الله أن يُخَلِّـ ... ـصَنِي من يديكُمُ

* * *

تركتَنِي يا ألفَ مَوْ ... لاىَ بألف نِعْمَـهْ

* * *

كم أناسٍ أظهروا الزهدَ لنا ... فتجافَوْا عن حَلاَلٍ وحرامِ

قلّلوا الأكلَ وأبدَوْا وَرَعًا ... وٱجتهـادًا فى صيامٍ وقيـامِ

ثم لمّـا أمكنتهم فرصــةٌ ... أكلوا أكلَ الحَزَانَى فى الظّلامِ

* * *

سَمع النـاسُ وقُلنـا ... وٱفتضحنا وٱسـترحنَا

تَّ والبــدرُ نَديمِي ... ففَعَلْنــا وتركنا

بات يدعونا التَّصَابِى ... فسمعنا وأطَعْنَا
وجعلناه يقينًا ... بعدَ ما قد كان ظَنَّا
شَكَرَ اللهُ لِمَنْ بَشَّـ ... ـرَ بالوصلِ وهنَّا
لى حبيبٌ لِيَ منه ... كُلُّ شيءٍ أتمنَّى
فَهْوَ بدرٌ يتجلَّى ... وهو غصنٌ يَتَثَنَّى
كانَ غضبانَ فلمّا ... أن تَلَاقَيْنَا ٱصطلحنا
يتجنَّى ولعَمْرِى ... حَقُّه أنْ يتجنَّى
جَمَعَ الحسنَ وفيه ... غير ذاك الحسنِ مَعْنَى
مَنْ له مثلُ حبيبى ... قد حَوَى حسنًا وحُسْنَى
هاتِ حَدِّثْنِى وقلْ لِى ... ما على العاذلِ مِنَّا
نحن لا نسألُ عنه ... ما له يسألُ عنّا

* * *

محبَّتِى تُوجب إدلالِى ... وأنت ذو فضلٍ و إفضال
و بيننا من سالف الوِدِّ ما ... يُوجب أن تسألَ عن حالِى
فاجعَلْ على بالك شُغْلِى كما ... شُكْرُك لا يَبرَحُ عن بالِى

* * *

لك يا صديقِى بغلةٌ ... ليست تُساوِى خَرْدَلَهْ
تمشِى فتحسبُها العيو ... نُ على الطريقِ مُشَكَّلَهْ

وتُخَالُ مُدْبِرةً اذا ... ما أقبلتْ مُستعجِلَهْ
مقدارُ خُطْوتِها الطو ... يلةِ حين تسرع أنمُلَهْ
تهتزّ وَهْيَ مكانَها ... فكأنّمــا هِيَ زَلْزَلَهْ
أشبهتَهــا بل أشبهتْ ... لكَ كأنّ بينكما صِلَهْ
تحكِي صفاتِك فى الثّقا ... لةِ والمهانةِ والبَلَهْ

* * *

فليتَ شعرِى متى تخلُو وتُنصِتُ لِى
حتّى أقولَ فقلبِى منك مَلآنُ
إيّاكَ يدرِى حديثًا بيننا أحدٌ
فهمْ يقولون : للحيطانِ آذانُ
مَنْ لِى بنَوْمِيَ أشكو ذَا السهادَ له
فهمْ يقولون : إن النومَ سلطانُ
أستخدم الريحَ فى حَمْلِ السلامِ لكم
كأنما أنا فى عصرِى سليمانُ

* * *

تُجَدِّدُ صبوةً فى كلّ يومٍ
وتَسْكَرُ سَكْرَةً من كُلِّ دنٍّ
أقول الحقَّ مالك من صديقٍ
فلا تَعتِبْ علىّ ولا تلُمْنى

نَصَحتُكَ لو صَحَوتَ قَبلتَ نُصْحى
ولكنْ أنت فى سكرِ التَّجَنّى
ومَنْ سَمِعَ الغناءَ بغير قلبٍ
ولم يَطرَبْ فلا يَلُمِ المُغَنّى
مُرادى لو خَبأتُكَ يا حبيبى
مكانَ النّورِ من عينِى وجَفْنِى

✣ ✣ ✣

لستُ أُصغِى ولا أَعِى   خَلِّنِى منكَ خَلِّنِى

✣ ✣ ✣

إنّ المليحَ مليحٌ   يُحَبُّ فى كلّ لَوْنِ

✣ ✣ ✣

نَراكُمْ قد بَدَا منكم   أمورٌ ما عَهِدْناها
كشفتم بيننا أشيا   ءَ قد كنّا سَتَرناها
وكَمْ جاءتْ لنا عنكم   أحاديثٌ رَدَدْناها
وأشياء رأيناها   وقلنا ما رأيناها
وما زلتم بنا حتّى   جسَرْنا وفَعَلناها
وكانت بيننا طاقٌ   فها نحن سَدَدْناها

* * *

سَيِّدى يومُك هذا	ليس يَخْفَى عنك رَسْمُهْ
قم بنا قد طلع الفجـ	ـرُ وقد أشرق نجمُهْ
عندنا وردٌ جَنِيٌّ	يُنعش الميِّتَ شَمُّهْ
ولدينا ذلك الضَّيْـ	ـفُ الذى عندك علمُهْ
ولنا ساقٍ رشيقٌ	أحورُ الطَّرْفِ أَحَمُّهْ
وخِوَانٌ يعبَق المسـ	ـكُ بَرِيَّاهُ وطَعْمُهْ
وأخ يرضِيكَ منه	فضلُه الجمُّ وفهمُهْ
كاملُ الظَّرْفِ أديبٌ	شامخ الأنفِ أَشَمُّهْ
حَسَنُ العِشْرةِ لا يأ	تيك منه ما تَذُمُّهْ
ومُغَنٍّ زِيرُهُ أطر	بُ مسموعٍ وبَمُّهْ
وسرورٌ ليس شيءٌ	غير رُؤياك يُتِمُّهْ
فأجِبْ دعوةَ داعٍ	أنت من دُنياه سَهْمُهْ
فاذا جئت وغاب النا	س طُرًّا لا يهمّه

* * *

من اليوم تعارَفْنا	ونَطْوِى ما جرى منا
ولا كانَ ولا صارَ	ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولا بُدَّ	من العَتْب فبالحُسْنَى
فقد قيل لنا عنكم	كما قيل لكم عنّا

كفى ما كان من هجرٍ وقـد ذُقتم وقـد ذُقنا
وما أحسَنَ أن نَرْجِـ ـعَ للوصـلِ كما كنّا

* * *

لا تَلُمْـنِي أو فَلُمْـنِي فيـك ظـلمٌ وتَجَنِّى
لا تُسَابِقْنِي لِعَتْبٍ ما بذا تَخْلُصُ منِّى
لا تقـلْ إنِّى وإنِّى ليس هذا القولُ يُغنِي
أنا لا أسأل عمن لم يكن يسألُ عـنِّى
إن تزرنى فبهذا الشـ ـرط أو لَا لَا تَزُرْنِى
فاْسترِحْ بالله من هذا التَّجَنِّى وأَرِحْنى

* * *

يا كتابا من حبيب أنا مشـتاق اليه
جاءنى منه سلام سـلّم الله عليـه

* * *

يا رسولى قَبّـلِ الأر ضَ اذا جئتَ اليـه
ثم عرِّفه بأنِّى كنتُ غضبانَ عليـه

وفى طبعة بلمر :

إنَّ الرضِىَّ الذى بُليت به أفعالُه الكلُّ غيرُ مَرْضِىِّ
وكنتُ فى شِـدّة برؤيته كمسـلِمٍ فى إسار ذِمِّىِّ
وبعدجهدٍ خلَصْتُ من يَدِهِ خلاصَ عظمٍ من كَفِّ تُرْكِىِّ

* * *

مضى الشبابُ وولّى ما آنتفعتُ به
وليتــه فارطٌ يُرْجى تلافيــهِ
أوليت لى عمــلًا فيــه أُسَرُّ به
أو ليتنى لا جَرَى لى ما جَرَى فيـهِ
وَا حَسْرَتاهُ لعمــرٍ ضاع أكثرُه
والويلُ إنْ كان باقيـه كماضيه
مَنْ مثلُ قلبِيَ أو مَنْ مثلُ ساكِنِهِ
ألله يحفَظُ قلــبى والّذى فيــه

* * *

مولاىَ يا قلبى العزيــزَ ويا حياتى الغاليهْ
إنى لأطلبُ حاجةً ليست عليك بخافيـه
أنعِمْ عــلىّ بِقُبْــلةٍ هِبَــةً وإلّا عاريه
وأعيدها لك ـ لا عُدِمــتَ ـ بعينها وكما هيَهْ
واذا أردتَ زيادةً خُذْها ونفسى راضيه
فعسى يجود لنـا الزمانُ بخَــلْوةٍ فى زاويه
أو ليتنى ألقـاك وَحْــدَكَ فى طريقٍ خاليه

* * *

قالوا كَبِرتَ عن الصِّبا وقطعتَ تلك الناحيه
فَدَعِ الصِّــبَا لرجاله وآخلَعْ ثيابَ العاريه

ونَعَمْ كَبِرتُ وانما ... تلك الشمائلُ باقيه
ويفوح من عِطْفَىَّ أنفا ... سُ الشبابِ كما هيه
ويميلُ بى نحو الصِّبا ... قلب رقيقُ الحاشيه
فيه من الطَّرَبِ القدي ... م بقيةٌ فى زاويه

* * *

لو ترانى وحبيبى عند ما ... فرَّ مثلَ الظَّبى من بين يدَىّ
ومضى يعدو وأعدو خلفه ... وتراناقد طَوَيْنا الأرض طَىّ
قال : ما ترجِعُ عنى؟ قلت لا ... قال : ماتطلبُ منّى؟ قلتُ شى
فأنثنَى يحمر منى خجلا ... وثناه التيهُ عنّى لا الىّ
كِدتُ بين الناس أنْ ألثمه ... آهِ لو أفعلُ ما كان علىّ

* * *

يا أعزَّ الناسِ عندى وعلىّ ... وحبيبًا هو منّى والىّ
ما له أصبح عنّى معرضًا ... تحت ذا الإعراض من مولاى شى
يا حبيبى أين ما أعهده ... يا تُرَى من ذا الذى زاد علىّ
فاتنِى اذ مرّ ما كلّمتُه ... كدتُ أن آكلَ من غيظٍ يدَىّ
أنا مَنْ قَدْ مِتُّ فى العشقِ به ... هنئونى، ميّتُ العُشّاقِ حَىّ

فى هذه الأشعار وكثيرٍ غيرها مما يُوجد فى ديوان البهاء زهير عباراتٌ وأساليبُ مِصْريّتها أكثرُ من عربيّتها، والشعراء يتأبّوْن أن يستعملوها منذ القِدَم وحتّى فى هذه العصور، ويَعُدُّون ذلك تبذّلًا

وضعفا و إخلالا بجمال الشعر وجمال البيان، ويُؤثرون لغةَ الشعر في عصور العربية الراقية ، حتى لا تكاد تفرِّق من جهة اللغة بين الشعر الراقى فى مختلف العصور. ولستَ تجد شاعرا من المعدودين في أى عصر حتى الآن يَرْضَى أن يستعملَ فى شعره كلمة اليَكَ والشيش، ولا أن يقول :

لست أصغى ولا أعى   خَلِّنى منك خَلِّنى

ولا أن يقول :

سمع الناس وقلنا   وانتضحنا واسترحنا

أستغفر الله ! هم لا يُريدون ذلك، بل ولا يقدرون عليه، فانما هو السهل الممتنع كما يقول ابن خَلِّكان. ولا بد من عبقريّة كعبقريّة البهاء زهير لتُوَفَّق هذا التوفيق فى إنشاء أشعار من الطراز الأوّل، يطرَب لها الخاصّة ولا تكون العامّةُ أقلَّ بها طَرَبا، بلسان هو لسان التحاور ولسان البيوت والأسواق .

لم يكن البهاء زهير عاجزا عن مجاراة غيره من الشعراء المُتَرَمّتين فى تخيُّر الألفاظ العربية، المتأنّقين فى تزيينها بالمحسِّنات ؛ فقد كان رجلا عالما دَرَس الأدبَ والدِّين، وعَرَف من أخبار العرب الجاهليّة والإسلامية ما يَنِمّ عليه شعرُه ؛ إذ يُشير الى الحوادث ويذكر أسماء كثيرين من الشعراء وغير الشعراء . وآختيارُه لكتابة السرّ فى عهد

الأيوبيين دليلٌ على منزلته من الرياسة العلميّة والأدبية فى ذلك العصر .

بل البهاء زهير قد سَلَك مسلك غيره من الشعراء فى تعبيراتهم وتفكيراتهم فى مدائحه . ومدائحُ البهاء زهير، فى غالبها، دون سائر فنونه الشعريّة طرافةً و إبداعًا، مع أنه شاعرُ القصرِ فى عهد الأيّوبيين، كما يقول هُيَار . ومن أمثلة هذه المدائح :

لَكَ اللهُ من والٍ ولىّ مقـرّبِ ... فكم لك من يومٍ أغرَّ مُحَبَّبِ
حَلَلتَ من المجدِ المنَّع فى الورَى ... بأرفع بيتٍ فى العَلَاء مُطَنّبِ
يُقَصِّرُ عن أمثـاله كلُّ قيصرٍ ... ويُغْلَبُ عن أمثـاله كلُّ أغلبِ
جوادٌ متى تَحْلُلْ بواديه تَلْقَه ... كما قِيل فى آل الجَوَادِ المُهَلَّبِ
أحقُّ بما قال آبن قيسٍ لمـالكٍ ... وأولَى بمـا قال ابن أَوْسٍ لمُصْعَبِ
ولو شاهد العِجْلىُّ جَدْواه ما انْتَمَى ... لِعكْرِمة الفَيّاض يومًا وحَوْشَبِ

ومن قصيـدة له يمدح بها السلطانَ الملك الناصر يوسف بن محمد بن عادى بن يوسف بن أيُّوب :

ومذ كنتُ لم ترضَ النقيصةَ شِيمَتِي
ومثلُك يأباهـا لمثـلى ويَأنَفُ
ولا أبتغى إلّا إقامـةَ حُرْمتى
ولستُ لشىء غيرِهـا أتأسَّفُ

ونفسى بحمدِ الله نفسٌ أبيَّةٌ
فها هى لا تهفو ولا تتلهَّفُ
ولكنّ أطفالًا صغارًا ونسوةً
ولا أحدٌ غيرى بهم يتلطّفُ
أغارُ اذا هبّ النسيمُ عليهمُ
وقلبى لهم من رحمةٍ يترجَّفُ
سرورِىَ أن يبدُو عليهم تنعُّمٌ
وحزنِىَ أن يبدو عليهم تقشُّفُ
ذَخرتُ لهم لُطفَ الإله ويوسفًا
ووالله لاضاعوا ويوسفُ يوسفُ
أُكَلِّفُ شعرى حين أشكُو مَشَقَّةً
كأنِّى أدعوه لما ليس يُؤْلَفُ
وقد كان معتادًا لكل تَغَـزُّلٍ
تَهيمُ به الألبَابُ حُسْنًا وتُشغَفُ
يلوح عليه فى التَّغَـزُّلِ رونقٌ
ويظهَرُ فى الشَّكوَى عليه تَكَلُّفُ
وما زال شعرى فيه للرُّوحِ راحةٌ
وللقلب مَسْلاَةٌ وللهمِّ مَصْرَفُ

يُنَاغيكَ فيـه الظَّبىُ والظبىُ أحورُ
ويُلهيك فيه الغصنُ والغصنُ أهيَفُ
شكوتُ وما الشكوَى اليكَ مَذلَّة
وإن كنتُ فيها دائماً أتأنَّفُ

وله قصيدة فى مدح الأمير النصير اللطىّ، أولها :

صَفْحًا لهذا الدهرِ عن هَفَواتِهِ إذ كان هذا اليومُ من حَسَناته
يومٌ يُسَطَّرُ فى الكتابِ مكانُه كمكان بآسم الله فى خَتَماتِه

ومنها :

يا معجزَ الأيّام قَرْعَ صَفَاته ومُجَمِّلَ الدنيـا بحسن صِفاته
قوم هُمُ فى البيـدِ خير سُرَاتها حسباً وهم فى الدهرِ خيرُ سَرَاته
شَرُف الزمانُ بكل نَدْبٍ منهمُ مُتَيقِّظ وهبَ العُـلَا غَفَلاتِه
يا مَنْسَكَ المعروفِ أحرِم منطق زمنًـا وقد لَبّاك من ميقاتِه
هـذَا زُهَيرُك لا زُهَيرُ مُزَيْنـة وافاك لا هَرِمًا على عِلّاتِه
دَعْه وحَوْليّاتِه ثم استمـعْ لزُهَير عصرك حسنَ لَيْليّـاته
لوأُنشِدتْ فى آل جَفْنَة أضربوا عن ذكر حَسَّانٍ وعن جَفَناتِه

ومن ذلك قوله فى مدح الملك الكامل ناصر الدين أبى الفتح محمد بن الملك العادل وذكر انتزاعه ثغر دمياط من الإفرنج :

بك آهتزّ عِطْفُ الدِّين فى حُلَلِ النَّصْرِ
ورُدّتْ على أعقابهـا مِلّةُ الكفرِ

وليــــلة غَزْوٍ للعــــدوّ كأنها
بكثرة من أرديتــــه ليلةُ النّحْرِ

فيا ليــــلةً قد شرّف اللهُ قـــــدرَها
ولا غروَ أن سمّيتُها ليلةَ القَـــدْرِ

ســــددتَ سبيلَ البرِّ والبحر عنهمُ
بسابحـــةٍ دُهْمٍ وسانحـــةٍ غُرِّ

أساطيلُ ليستْ فى أساطيرِ مَنْ مَضَى
بكل غُرابٍ راح أفتكَ من صَقْرِ

وجيشٍ كمثل الليـــل هولاً وهيبــةً
وإن زانه مافيــــه من أَنْجُمٍ زُهْرِ

وكلّ جوادٍ لم يكن قــطُّ مثلُه
لآل زُهَـــيرٍ لا ولا لبـــنى بَدْرِ

وباتت جنـــودُ الله فوق ضـــوامرٍ
بأوضاحهـا تُغنى السُّراةَ عن الفجرِ

فلا زِلتَ حـــتّى أيّد الله حزبَه
وأشرق وجهُ الأرض جذلانَ بالنصرِ

كفى الله دِمياطَ المكاره، إنهـا
لَمِنْ قِبلةِ الإســـلام فى موضع النحرِ

وما طـاب ماءُ النيـلِ إلّا لأنه
يَحُلّ محلَّ الريقِ من ذلك الثغـــر

ومن قصيدة يمدح بها علاء الدين على بن الأمير شجاع الدين جلدك :

فيـا ظبيُ هَلّا كان منك التفاتةٌ
ويا غصنُ هَلّا كان فيك تعطُّفُ
ويا حرَمَ الحسنِ الذى هو آمنٌ
وألبابُنـا من حوله تُتَخَطَّفُ
عسى عطفةٌ للوصلِ يا واوَ صُدْغِه
علىّ فإنّى أعرف الواوَ تَعطِفُ

ومن قصائده فى مدح السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وذلك فى سنة ٦٢٢ كما فى طبعة پلمر ، ولعلها أولى قصائده فى مدحه حين جاء من قوص الى القاهرة واتصل به ، :

وعدَ الزيارةَ طَـــرْفُه المتمـــلِّقُ
وتلاف قلبى من جفـــونٍ تَنْطِـقُ
إنى لأهـــوَى الحسنَ حيثُ وجدتُه
وأَهيم بالقَـــدِّ الرشـــيقِ وأَعْشَـــقُ

وبلّتى كَفَلٌ عليــــه ذُؤابةٌ
مثل الكثيب عليـه صِـلٌّ مُطــرِقُ

إن عَنَّفوا، إن سَوّفوا، إن خَــوّفوا
لا أنثنى ، لا أنتهى ، لا أفــرَق

ويزيدنى تَلَفًا فأشكرُ فضــلَه
كالمسك تَسحَقُه الأكُفُّ فيَعْبَقُ

ولقــد سعيتُ الى العَــلاء بهمّةٍ
تَقضِى لسـعى أنه لا يُخْفِــقُ

وسريتُ فى ليــلٍ كأنّ نجومَــه
من فَــرْطِ غَيْرتها إلىّ تُحَــدِّقُ

حــتّى وصلتُ سُرَادِقَ الملك الذى
تقف المــلوكُ ببابه تَسْــترزِقُ

فإليــكَ يا نجــمَ السماءِ فإنّنى
قــد لاح نجمُ الدِّين لى يتألّقُ

الصالحُ المــلكُ الذى لزمانــه
حسنٌ يتيــهُ به الزمانُ ورَوْنَقُ

ملأ القــلوبَ مخافةً ومحبّــةً
فالبأس يُرْهَب والمكارمُ تُعشَقُ

فعَـدَلتَ حتّى ما بهـا متظَلِّمٌ
وأنلتَ حتّى ما بهـا مُسترزِقُ
يا مَنْ رفضتُ النـاسَ حين لقِيتُه
حتّى ظننتُ بأنهـم لم يُخلقـوا
قيّـدتُ فى مصرٍ إليـكَ ركائبى
غيرِى يُغـرِّب تارةً ويُشـرِّق
وحَللتُ عنـدك اذْ حللتُ بمَعْقِـلٍ
يُلْـقِى اليـه ماردٌ والأبـلقُ
وتيقَنَ الأقـوامُ أنّىَ بعـدَها
أبدًا الى رُتَبِ العُـلَا لا أُسْـبَقُ
فرُزِقتُ ما لم يُرزَقـوا ونطقتُ ما
لم يَنْطِقـوا ولَحِقتُ ما لم يَلْحقُـوا

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز محمد :

عَرَف الحبيبُ مكانَه فتَـدَلَّلا ... وقَنِعتُ منـه بموعدٍ فتعَـلَّلا
وأتى الرسولُ فلم أجِدْ فى وجهه ... بِشْرًا كما قد كنتُ أعهدُ أوّلا
فقطعت يومى كلّه متفكِّرًا ... وسَهِرتُ ليـلى كلَّه مُتملمِلَا
وأخذتُ أحسبُ كلَّ شىءٍ لم يكن ... متحـرِّكًا فى فكرتى مُتَخَيَّـلا
فلعـلّ طيفًا زار منـه فردّه ... سَهَرى فعاد بغيظِه فتَقَـوَّلا
وعسى نسـيمٌ بِتُّ أكتُمُ سِرَّنا ... عنه فراح يقول عَنى قد سـلا

ولقد خَشِيتُ بأن يكون أمالَه غيرى ، وطبعُ الغصنِ أن يَتَميَّلا
وأظنه طلبَ الجديدَ وطالما عَتَقَ القميصُ على امرئ فتبدّلا
أهوَى التذلُّلَ فى الغرامِ وإنما يأبَى صلاحُ الدِّين أن أتذلّلا
مَهّدتُ بالغزل الرقيقِ لمدحه وأردتُ قبل الفَرْضِ أن أتنفّلا
يا مَنْ مديحى فيه صِدقٌ كلُّه فكأنّما أتلو كتاباً مُنْزَلا
يامَنْ وَلائى فيه نَصٌّ بيِّنٌ والنَّصُّ عند القوم لن يُتأوَّلا

ولعل البهاء زهيرا كان يشعر بما يكتنف مذهبَه الجديدَ فى الشعر من تنقيص خصومِه ، ومن ضعف الأذواق التى أفسدها التكلُّف عن تذوّقه ؛ لذلك كان يسلك فى الشعر الرسمىِّ شعرِ المديح ، المذهبَ القديمَ غالبا ، ويظهر عليه ، فى كثير من الأحيان ، أنه يحاول غير ما فى طبعه ، حتى اذا هَتَفَت بالشعر عواطفُه ، عاد الى مذهبه السهل البسيط الخالى من التصنُّع القريب من الفِطَر .

ولمذهب البهاء زهير خصومٌ نجد صَدَى أحكامهم فى قول صاحب كتاب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » لليافعى اليمنى المتوفَّى سنة ٧٦٨ :

« قال ابن خلّكان : وكل شعره لطيف ، وذكر شيئا منه فى تاريخه ، ولكن للاختصار والتخفيف لم أكتب شيئا منه ولا أعجبنى ولا قوّى عزمى الضعيف » .

لكن لمذهب البهاء زهير مريدون كثيرون يرون شعرَه لطيفًا من السهل الممتنع، كما نقلنا عن ابن خلّكان .

ويرى بلمر، فى مقدّمته لديوان شاعرنا، أنّ عصر البهاء زهير كان أكثر العصور صلةً بين الثقافة العربيّة وثقافة الغَرْب، بسبب الحروب الصليبيّة وما تبعها من ٱستقرار مملكة غَرْبيّة فى فلَسطين زمنا . ويقول : إن شعر البهاء زهير يُشابه الشعرَ الأوربىّ، وأكثر أفكاره تُحاذى أفكارَ الشعراء الانجليز فى القرن السابعَ عشر .

ب — الناحية الثانية من نواحى عبقريّة البهاء زهير فى النهضة الشعرية — ناحية الأوزان .

أسلفنا أنه كانت فى عهد البهاء زهير ٱنتشرت أوزانُ التوشيح الآتية من الأَنْدَلُس، وذلك لا بدّ أن يكون نبّه الشعراء الى فنٍّ من الألحان الشعرية جديد، فٱهتدت الفِطَر الموسيقيّة الى ٱختيار البحورِ اللطيفة والأوزان الموفورة الحظّ من الموسيقِى ومن التأثير . وهذا شأن البهاء زهير، فإننا نجده فى غير شعر المديح قلما يَرْكَنُ الى غير الأوزان الخفيفة . يقول :

هو حَظّى قد عَرَفتُهْ ... لم يَحُلْ عمّا عَهِدْتُهْ

فإذا قَصّر مَنْ أهـ ... ـواهُ فى الودِّ عذرتُهْ

غيرَ أنّى لِىَ فى الحُبِّ طريقٌ قد سَلَكتُه

لو أراد البُعدَ عنّى نورُ عينى ما تَبِعتُه

إنّ قلبى وهو قلبى لو تَجَنّى ما َحِبتُهْ

كُلُّ شئٍ من حبيبى ما خلا الغَدْرَ آحتملتُه

أنا فى الحبِّ غيورٌ ذاك خُلْقِى لاعَدِمتُهْ

* * *

وقال دُو بيت :

قَدْ راحْ عذولِى ومثل ما رَاحْ أتى

بالله مَتَى نقضتمُ العهدَ متَى

ماذا ظنّى بكم وماذا أملى

قد أدرك فىّ سُؤلَه من شَمِتَا

* *

هَبّ النسيمُ عليلًا وهو النسيمُ الصحيحُ

وطاب وقتُك فانهَضْ فالآنَ طابَ الصَّبُوحُ

وخُذْ عن الكأسِ نُورًا به يُضىء الفَسيحُ

مِنْ قَهوةٍ طابَ منها طعمٌ ولونٌ وريحُ

فى دَنِّها وهْىَ راحٌ وفى الحشا وهْىَ رُوحُ

* * *

يا مُعْرِضًا مُتَجَنِّيًا حاشاك ياعينى ورُوحِى

لم تدرِ ما فعلَ البكا ءُ عليكَ بالجفنِ القريحِ

وجَرَحتَ قلــبى بالجفا ءِ فآهِ للقلبِ الجــريح
قُبِّحتَ فىَّ بمــا فعــلـ ـتَ ولستَ من أهلِ القبيح
إن كنتَ منِّى مُســـتريـ ـحًا لستُ منك بمستريح
فمــتى أفــوزُ بنظــرةٍ من وجهك الحَسَنِ المليح
لك من ضميرى ما علمـ ـتَ به من الودِّ الصريح
وكذاك أنتَ فسَــلْ ضميـ ـرَك فهو يشهد بالصحيح

* * *

يافاعلَ الفَعْلة التى آشــتهرتْ لم تجرِ فى خاطرى ولا خَلَدى
فعلتَهــا بعد عِفّــةٍ وتُقًى فيَالهــا ســبّةً الى الأبــدِ
هــذا وأنت الذى يُشار له لا عَتْبَ من بعدها على أحدِ

* * *

حبيبى تائهٌ جِــدًّا أطال العَتبَ والصَّدّا
حَمانى الشُّهد من فِيه وخَلّى عندىَ السُّهْدا
وهيفاء كما تهــوَى تُريك القدَّ والخــدّا
وتُشجيك بألحانٍ تُذيب الجَلْمَدَ الصَّلْدَا
ولفظٍ يُوجب الغسلَ على السامع والحَــدّا
جزى الرحمنُ شعبانًا تقضّى الشكرَ والحمــدا
وإن عِشنا لشــوّالٍ أعدنا ذلك العهـــدا

* * *

قد أتانا الطَّبَقُ الملـ ـآن بالورد النضيد
غيرَ أنّى لا أُحِبُّ الـ ـوردَ إلا فى الخدود
وأتانى منك شعرٌ كلُّ بيتٍ بقصيدِ
كامل الحسنِ فما أغـ ـناه عن حسنِ النشيدِ

فى رثاء :

أمسيتَ فى قَعْرِ لحدِ ورُحتُ منك بوجدِ
وعشتُ بعدك يا مَنْ وَدِدتُ لو عِشتَ بعدى

فى هجو :

لعن الله صاعدا وأباه فصاعدا
وبنيه فنازلا واحدا ثم واحدا

* * *

جاء الرسولُ مُبَشِّرى منها بميعادِ الزيارَهْ
أهدَى الىّ سلامَها وأتى بخاتَمِها أمارَهْ
وأشار عن بعض الحديـ ـثِ وحبّذا تلك الإشارَهْ
إن صحّ ما قال الرسو لُ وهبتُه رُوحى بِشارَهْ

* * *

حبّذا دُورٌ على النيـ ـل وكاساتُ تدورُ
ومَسَراتٌ تموجُ الأر ضُ منها وتمورُ
وقصورٌ ما لعيش نلتُه فيها قصورُ

كم بها قد مرّ لى أسـ ـتغفر اللهَ سـرور
كلُّ عيش غيرِ ذاك الـ ـعيش فى العالَم زورُ
مـتزلٌ ليس على الأر ض له عندى نظيرُ

* * *

وجاهل أصبح لى عائبًا قلت على العينين والراسِ
أراه قد عرّضَ لى عِرْضَه أُشهدكم يا مَعْشَرَ الناس

* * *

دعونى وذاك الرشا فوجدى به قد فشا
حَلالًا حلالًا له يُعذِّبنى كيف شا
سَرَتْ خمرةُ الريقِ فى مَعَاطفه فانتشى
فيا مَشْقَ ذاك القوا مِ ويا طَىَّ ذاك الحشا
مشى لِىَ فى خُفْيةٍ فياحبَّذا مَنْ مشى
وليس عجيبًا بأن ترى الظبىَ مُستوحشا

* * *

مالى أراكَ أضعتَنى وحَفظتَ غيرى كلّ حِفْظِ
متهتِّكا فاذا حضرتَ تَظَلُّ فى نُسك ووعظ
فَظًّا علىّ ولم تكن يومًا على غيرى بفظِّ
هذا وحقِّ الله من نَكَدِ الزمانِ وسُوءِ حَظِّى

* * *

مائدةٌ مُنَوَّعهْ وقهوةٌ مشعشعهْ
وسادة تراضعُوا كأسَ الودادِ مُترَعهْ

ولا يزيدون على ثلاثةٍ أو أربعهْ
فاليومُ يومٌ لم يَزَلْ يومَ سكونٍ ودَعَهْ
فيا أخى كن عندنا بعد صلاة الجُمُعهْ

تائهٌ ما أصْلَفَهْ ويحَ قلبٍ ألِفَه
كاد أن يُتلفَهُ ليتَه لو أتلفَهْ
أىُّ روضٍ زاهرٍ لم أصِلْ أن أقطِفَه
وقضيب ناعم لم أُطِقْ أن أعْطِفَهْ

تعيشُ أنت وتبقَى أنا الذى متُّ عشْقَا
حاشاك يا نورَ عينى تلقَى الذى أنا ألقَى
ولم أجِدْ بين موتى وبين هَجْرِك فَرْقا
يا أنعمَ الناسِ قُلْ لى الى مَتَى فيك أشقَى

٭

أحبابَنا حاشاكمُ من غَضَبٍ أو حَنَقِ
أحبابَنا لا عاش مَنْ يُغْضبكم ولا بَقِى
هذا دلالٌ منكمُ دعُوه حتى نلتقى
والله ما خرجتُ فى حبِّى لكم عن خُلُقِى
وما بَرِحتُ فى ستو رِ فضلكم تَعَلُّقِى
ويلاه ما يلقاه قلـ بى منكمُ وما لَقِى

إن لم تجودوا بالرضا　　فَبَشِّرُوا قلبى الشَّـيِّقِ
وَانَجْلتى منكم اذا　　عَتَبْتُمُ واحَـرَقى
أكادُ أن أغرَقَ فى　　دمعِى أو فى عَرَقى
ما حِيلتى فى كَذِبٍ　　من حاسدٍ مُصدَّقِ

⁂

ويحكَ يا قلبُ أمَا قلتُ لَكْ　　إيّاكَ أن تَهْـلِكَ فيمن هَلَكْ
حَرّكتَ من نار الهوى ساكنًا　　ما كان أغناكَ وما أشْـغَلَكْ
ولى حبيبٌ لم يَدَعْ مَسْلَكًا　　يُشمِتُ بى الأعداءَ إلّا سَلَكْ
مَلَّكتُهُ رُوحى وياليتَـه　　لو رَقّ أو أحسنَ لمّا مَلَكْ
بالله يا أحمـرَ خَدَّيْهِ مَنْ　　عَضّك أو أدماك أو أخجلكْ
وأنت يا نَرْجِسَ عينيـه كَمْ　　تشربُ من قلبى وما أذْبَلَكْ
ويا لَمَى مَرْشَـفِه إنّنى　　أغارُ للمِسْـواكِ إذ قَبَّـلكْ
ويا مَهَزَّ الغصنِ من عِطْفِه　　تبـارك الله الذى عَـدَّلكْ
مولاى حاشاك تُرَى غادرًا　　ما أقبحَ الغـدْرَ وما أجْمَلَكْ
ما لَكَ فى فعلك مِنْ مُشْـبِهٍ　　ما تَمّ فى العـالم ما تَمّ لك

كل شيء منك مقبولُ　　وعلى العينين محمولُ
والذى يُرضيك من تَلَفِى　　هيّنٌ عنـدى ومبذولُ

* * *

وجاهلٍ يجهلُ ما يقولُ　　أقوالُه ليس لها تأويلُ
لها فصولٌ كلها فضولُ　　كثيرُ ما يقوله قليـــلُ
فهى فروعٌ ما لها أصولُ　　كلامُه تَمُجُّه العقــولُ
أتعبنى حديثُه الطويلُ　　فليتَه كان له محصـولُ
وجملةُ الأمرِ ولا أُطيلُ　　هو الرّصاصُ باردٌ ثقيلُ

* *

مالَهُ عَـــنِّىَ مَالَا　　وتجـــنَّى فأطالَا
أتُرَى ذاكَ دلالا　　من حبيبى أم مَلالا

* * *

مــنزلٌ إن زرتَه　　لم تلقَ إلا كَرَمَكْ
وإن تَسَلْ عمن به　　لم تلقَ إلا خَدَمَكْ

* *

أبا يحيى وما أعرِ　　فُ من أنت أبا يحيى
فحـدِّثنى وقُــلْ لى أىُّ　　شىءٍ أنت فى الدنيا
من الجن؟ من الإنس؟　　من الموتى؟ من الأحيا؟
بعيـدٌ منك أن تُفْلِحَ　　فى شىءٍ من الأشــيا
فلا أهلًا ولا سهلًا　　ولا سَــقيًا ولا رَعْيَـا

ونـديمٍ بِتُّ منـــه　　ناعمَ البـالِ رضــيّا
جاءنى يحمــلُ كأسًــا　　قارن البــدرُ الــثريّا

قال خذها قلتُ خذها أنت وٱشرَبْها هَنِيّا
لا تزِدْني فوق سُكري بالهَوى سكرَ الحُمَيّا
عندها أعرَضَ عنّي مُطْرِقَ الرأسِ حَيِيّا
قلت لا واللهِ إلّا هاتها كأسًا رَوِيّاً
لستُ أعصي لك أمرًا لستُ أعصي لك نَهْيَا
فسقانيها عُقارًا تترك الشيخَ صَبِيّا
وتُريك الغيَّ رشدًا وتُريك الرشدَ غَيّا
لم يَزَلْ منّي اليه الـ ـكأسُ أو منه إليّا
هكذا حتّى بدا الصُّبْـ ـحُ لنا طَلْقَ المُحَيّا
يالَهَا ليلةَ وصلٍ مثلُها لا يَتَهَيّا

هذه أمثلة الأوزان التى يستعملها البهاء زهير فى شعره والقوافى، وفيها من اللطف وحسن النغمة شىء كثير.

وذكر بعض المترجمين للبهاء زهير أن له وزنا مُخترعًا لا يُخرجه العروض، فى قوله :

يا مَنْ لَعِبتْ به شَمُول ما ألطفَ هذه الشّمائلْ
نَشْوانُ يَهُزُّه دَلال كالغصنِ مع النسيم مائلْ
لا يُمكنه الكلامُ لكن قد حَمّلَ طَرْفَه رسائلْ
ما أطيبَ وقتَنا وأهْنَا والعاذلُ غائبٌ وغافل

عشقٌ ومَسَرّةٌ وسكْرٌ والعقلُ ببعضِ ذاك ذاهلْ
والبــدرُ يلوح فى قِنــاعٍ والغصنُ يميل فى غلائلْ
والوردُ على الخدود غَضٌّ والنَّرْجِسُ فى العيون ذابلْ
والعيشُ كما نُحِبّ صافٍ والأُنس بما نحبّ كاملْ

ويُحاول العروضيُّون أن يجدوا لهذا الوزن مخرجًا فى علمهم، كما فعل الدَّمَامينى فى شرح الخَزْرجيّة . وليس الذى يهمنا أن يكون البهاء زهير ٱبتدَع أوزانًا لا يُسيغها علم العروض؛ لكن البهاء زهيرا من غير شك اختار لشعره ألطف الأوزان وأدناها محبةً الى الذوق السليم، وٱستخرج من ذلك ما لم يكن مستعملا فى عهده ولا قبل عهده ولا بعده إلا قليلا .

ج — الناحية الثالثة — ناحية الموضوعات الشعرية .

ما وصل الينا من شعر البهاء زهير يجمع كل ما تَعَرّض له شعراء العربيّة من فنون الشعر : كالمديح، والهجاء، والغزل، والنسيب، والوصف، والخمريّات، والرثاء، والفخر .

ومديح البهاء زهير أقلُّ شعره تَشَبُّعا بِرُوحه فى الغالب؛ وله فيما عدا ذلك نَمَطٌ خاصّ يُخرج الموضــوعات المطروقة الى نوع من الطرافة . وذكر پلمر مثالًا لذلك قولَه فى المشيب :

فقد انجلى ليـل الشبا ... ـبِ وقد بدا صبح المشيبِ
ورأيتُ فى أنــوارِه ... ما كان يخفَى من عيوبى

وقوله فى الموت عِشْقًا :

أنت رُوحى وقد تملكتَ رُوحى ... وحياتى وقــد سَلَبتَ حياتى
مُتُّ شــوقًا فأحْيِنِى بوصــالٍ ... أُخبر الناسَ كيف طعمُ المماتِ

وقوله :

تخذ مَرّةً رُوحى تُرِحْنى ولم أكن ... أموتُ مرارًا فى النهارِ وأُبعَثُ

* * *

ألَا إن عندى عاشقَ السُّمْرِ غالطٌ ... وإنّ المِلاحَ البِيضَ أبهى وأبهجُ
وإنى لأهوَى كلَّ بيضاءَ غادةٍ ... يُضىء لهـا وجهٌ وثغـرٌ مُفَلَّجُ
وحسبِى أنّى أتبَعُ الحقَّ فى الهَوَى ... ولاشكَّ أن الحقَّ أبيضُ أبلجُ

يا كثير الصدود والإعراضِ ... أنا راضٍ بمـا به أنت راض
هاتِ بالله يا حبيبِىَ قل لى ... أين ذاك الرضَا وأين التَّغاضى
إنــ لى حاجةً اليـك وإنى ... فى حَياءٍ عن ذكرها وانقباض
حاجة مذ أردتُهــا أنا فى التَّعْـ ... ـرِيضِ عنها وأنت فى الإعراض
أمَلى فيــك دونه سيفُ لحظٍ ... ذاكَ مستقبلٌ وهذاك ماضى
أشتهى أن أفـوزَ منــك بوعدٍ ... ودع العمرَ ينقضى فى التقاضى

* * *

يا مانعًا حلوَ الرِّضا ... وباذلًا مُرَّ السَّخَطْ

حاشاك أن تَرْضَى بأنْ ... أموتَ فى الحبِّ غلطْ

وغير ما ذكره بلمر كثيرٌ مضى بعضُه فيما مرّ، ومنه قول شاعرنا فى كتمان اسم الحبيب :

فعَرِّضْ اذا حدثتَ بالبانِ والحِمىَ

وإيَّاكَ أن تَنْسَى وتذكرَ زينبا

ستكفيك من ذاك المسمَّى إشارةٌ

ودَعْه مصونًا بالجمال مُحَجَّبَا

أشِرْ لى بوصفٍ واحدٍ من صِفاته

تكن مثلَ مَنْ سَمَّى وكَنَّى ولَقَّبَا

* * *

عَجِبتُ لطيفٍ زار بالليل مَضجَعِى

وعادَ ولم يَشفِ الفؤادَ المعذَّبَا

وما صدّ عن أمرٍ مريبٍ وإنما

رآنى قتيلًا فى الدُّجَى فتهيَّبا

* *

وقوله فى المشيب أيضا :

وليس مشيبا ما ترون بعارضى ... فلا تمنعونى أن أهيمَ وأطرَبَا

فما هو إلا نور ثغرٍ لثمتُه ... تَعَلّق فى أطراف شعرى فألهبَا

وأعجبنى التجنيسُ بينى و بينه فلما تبدَّى أشنبًا رُحتُ أشيبا
وهيفاء بيضاء الترائبِ أبصرتْ مشيبًا فأبدتْ روعةً وتعجُّبا
جنتْ لىَ هذا الشيبَ ثم تجنَّبتْ فوا حَرَبَا ممن جَنَى وتجنَّبا

جاءت تودعنى والدمـعُ يغلبُها
يومَ الرحيلِ وحادى البين مُنْصَلِتُ
وأقبلت وَهْىَ فى خوفٍ وفى دَهَشٍ
مثـلَ الغزالِ من الأشراكِ ينفلتُ
فـلم تُطقْ خيفـةَ الواشى تُوَدِّعنى
ويحَ الوُشاة لقـد نالوا وقد شَمِتوا
وقفتُ أبكى وراحتْ وهْىَ باكيةٌ
تسـير عنِّى قليـلًا ثم تلتفتُ

وقوله فى الوُشاة :

إنى لأشكر للوشـاةِ يدًا عنـدى يَقِلُّ لمثلها الشكرُ
قالوا فأغرَوْنا بقولهـمُ حتى تأكَّدَ بيننـا الأمرُ

وقوله فى الغَيْرة :

وأُنَزِّه اسمَـك أن تَمُـرّ حروفُه من غَيْرتى بمسامعِ الجُـلَّاسِ
فأقول بعضُ الناسِ عنك كنايةً خوفَ الوُشاةِ وأنت كلُّ الناسِ

وأغار إن هَبَّ النَّسـيمُ لأنه مُغْـرًى بهـزِّ قَوامِك المَيّاسِ
ويَروعنى ساقِى المُـدامِ إذا بدا فأظُنُّ خَدَّك مشرقًا فى الكاسِ

صدق الواشون فيما زعموا أنا مُغْـرًى بهواها مغـرمُ
فَلْيَقُـلْ ما شاء عنّى لائمى أنا أهـواها ولا أحتشمُ
غلبَ الوجدُ فـلا أكتُمُهُ إنما أكتُمُ ما ينكتِمُ
أين من يَرْحَمُنِى أشكُو له إنما الشكوى الى من يرحمُ
أيها السائل عن وجدى بها إنه أعظـمُ مما تزعُمُ
ظُنَّ خيرًا بيننا أو غيرَه فحبيبى فيـه تحـلو التُّهَمُ

ورقة البهاء زهير فى غَزَله أظهرُ من أن تحتاج الى بيان، وقد استشهد لها پلمر بقول البهاء يخاطب رسولَ حبيبه :

ودَعْنى أفُزْ من مُقْلَتَيْك بنظرةٍ فعهـدُهما ممن أُحِبُّ قريبُ

ومن مختاراته فى هذا الباب قوله :

وغانيـةٍ لما رأتـنىَ أعْـوَلت
وقالت عجيبٌ يا زُهَـيرُ عجيبُ
رأتْ شـعراتٍ لُحْنَ بيضًا بِمَفْرِقِى
وغُصْنِىَ من ماء الشـبابِ رطيبُ

لقــد أنكرتْ منِّى مشــيبًا على صِبًا
وقالت مشيبٌ؟ قلت ذاك مشيبُ

أروح ولى فى نشــوةِ الحب هِزّةٌ
ولستُ أُبالى أن يقال طروبُ

مُحِبٌّ خليــعٌ عاشــقٌ متهتِّــكٌ
يَــلَذُّ لقلبى كلُّ ذا ويطيبُ

خلعتُ عِذَارى بل لَبِستُ خَلَاعتى
وصَرّحتُ حتى لا يقــالَ مريبُ

وَفَى لِىَ مَنْ أهوَى وصَرّحَ بالرضــا
يمــوت بغيــظٍ عاذلٌ ورقيبُ

فــلا عيشَ إلّا أن تُدارَ مدامةٌ
ولا أُنْسَ إلّا أنْ يزورَ حبيبُ

وإنِّى ليــدعونى الهوَى فأُجيبُــه
وإنى ليثنيــنى التُّــقَى فأُنيبُ

فيــامَنْ يحبّ العفــوَ إنّىَ مذنبٌ
ولا عفــوَ إلّا أن تكونَ ذنوبُ

* * *

أهوى الدقيق من المحــا سِنِ والرقيقَ من النسيبِ

ومن دلائل تساميه فى فهم الجمال عن الصورة المبذولة الى المعنى الدقيق ، تَغَزُّلُه فى آمرأة طويلة ، وفى آمرأة قصيرة، وفى بيضاء، وفى سمراء، وتَغَزُّلُه فى عمياء اذ يقول :

قالوا تَعَشَّقْتَها عَمْيا فقلتُ لهم
ما شانَها ذاك فى عينى ولا قَدَحَا
بل زاد وجدِىَ فيها أنها أبدًا
لا تُبصر الشيبَ فى خَدِّى اذا وضَحَا
إن يَجْرِحِ السيفُ مسلولًا فلا عَجَبٌ
وانما عَجَبِى من مُغْمَدٍ جَرَحَا
كأنما هى بستانٌ خلوتُ به
ونام ناظرُه سكرانَ قد طفحا
تَفَتَّح الوردُ فيه من كمائمه
والنَّرجس الغَضُّ فيه بعدُ ما آنفتحا

وله أيضا :

يا صارِفِى القلبِ إلَّا عن محبَّتِهِمْ
وسالِبِى الطَّرْفِ إلا عنهمُ نَظَرَهْ
وبِمُّ الليلَ فى أَمْنٍ وفى دَعَةٍ
وليس عندكمُ علمٌ بمن سَهِرَهْ

فكم غرستُ وفائى فى محبتّكم
فما جَنَيتُ لغَرْسى فيكمُ ثَمَره
ولم أَنَلْ منكمُ شيئًا سوى تُهَمٍ
تُقال مشروحةً فينا ومُختصره
قويّة العزم فى إتلافِ عاشقِها
ضعيفةالخَصْرِ والألحاظِ والبَشَرهْ

ومن ذلك قوله :

فلا تبعثوا لى فى النسيم تحيّةً — فيرتابَ من طِيبِ النسيم جَليِسى
وكنتم وعدتم فى الخميس بزَوْرةٍ — فكم من خميسٍ قد مضى وخميس
وانى لأرضَى كلَّ ما ترتضونَه — فإنْ يرضِكم بُوسى رضيتُ ببُوسى
على أنّ لى نَفْسًا علىّ عزيزةً — وفى الناسِ عُشّاقٌ بغير نفوس

ويظهر فى غزال البهاء زهير صدقُ اللّهْجة وكمالُ الفهم لجمال المرأة والتأثر به :

فلا تَقْرَعُوا بالعَتبِ قلبى فإنّه
وحَقِّكمُ مثلُ الزُّجاجِ صديعُ
سأبكِى وإن تَنْفَدْ دموعِى عليكمُ
بكيتُ بشعرٍ رَقّ فهو دموعُ
أُحِبُّ البديعَ الحسنِ معنًى وصورةً
وشعرِىَ فى ذاك البديعِ بديعُ

وله فى العشق وتقديره نظرٌ دقيق، فهو يقول :

ملأتُمْ فؤادى بالهــوى فهو مُتْرَعٌ
ولا كان قلبٌ فى الهــوى غير مترعِ

ويقول أيضا :

لحى الله قلبًا بات خِلْوًا من الهَــوَى
وعينًا على ذكر الهوَى ليس تَذْرِفُ
وإنِّى لأهوَى كلَّ مَنْ قِيل عاشقٌ
ويزداد فى عيــنى جلالًا ويَشْرُفُ
وما العشقُ فى الإنسان إلا فضيلةٌ
تُدَمِّثُ من أخلاقـه وتُلَطِّفُ
يُعظِّم من يهــوَى ويطلبُ قُـــرْبَه
فتكثُر آدابٌ له وتَظَـــرُّفُ

* * *

أعشَقُ الحسَن والملاحةَ والظَّرْ ... فَ وأهوَى مكارمَ الأخلاقِ

* * *

إنى لأهوى الحسَن حيثُ وجدتُه ... وأهِيمُ بالغُصنِ الرشيقِ وأعشَقُ

*

فكلُّ ضَلالٍ فى هواك هدايةٌ ... وكل شــقاءٍ فى هواك نعــيمُ

* * *

لامَ فى الحبّ أُناسٌ وهْوَ أخلاقُ الكرامِ
ما أرى الناسَ سوى العْشّـ ـاقِ من كلِّ الأنامِ

ويقـــول :

جزى الله عنِّى الحبَّ خيرًا فإنه به آزداد مجدى فى الأنام وعَلْيائى
وصيَّر لى ذكرًا جميــلًا لأننى أحسِّنُ أفعالى لتحسُنَ أسمائى

وقد يكون فى هــذا النظم بعضُ الضّعف ، ولكنه يعبر عن معنى من أشرف المعانى وألطفها .

وغزل البهاء زهير فن فى الأدب العربى خرج عن صُوَر الغزل التى رسمتها التقاليد : فليس بكاءً على الأطلال والدِّمن ، ولا وصفًا لسفر الحبيب على ناقته تجوب الصَّحراء ، ولكنّه حكايةٌ لما يجرى بين الأحباب فى الحياة وما يتبادلونه من حِوار وعِتاب ، ونعتٌ لمجالسَ مُمْتِعة بين عاشقين ، ووصفٌ للحبّ نفسِه وما يُحدث فى نفس المحب من نُزوع الى الكمال .

وقصائد البهاء زهير تكون عبارة عن موضوع متِّصل المعانى لا تجد فيه ما تجد فى غالب الشعر العربى من تَنَقُّل وآستطراد يكاد يفقد الصلة بين أجزاء الشعر الواحد . ويُلاحَظ أنّ البهاء زهيرا لا يتحرّج من استعمال العبادة فى الحب ، وهو نادر فى الشعر العربى ، وذلك كقوله :

ومن العجائب فعلُه بمحبِّه يُصلِيه نارًا وهو من عُبَّاده

وقــوله :

سأشكر حُبًّا زانَ فيك عبادتى ... وإن كان فيه ذِلّةٌ وخضوعُ
أُصَلِّ وعنـدى للصبابةِ رقّةٌ ... فكلُّ صلاتى فى هواك خشوعُ

وقــوله :

لى حبيبٌ عبـدتُه ... ويحَ مَنْ يعبُد الوَثَنْ

ومن الفنون الجديدة فى شـعر البهاء زهير تسـجيلُه لمشاهد وصُوَر تَنِمّ عن حبّـه لوطنه ، وتذوُّقه لمـا فيه من نعيم طَبَعىّ وغير طَبَعى، ونذكر من أمثلته :

لله بســتانى وما ... قَضَّيتُ فيه من المآربْ
لهــفِى على زَمَــنِى به ... والعيشُ مُخْضَرُّ الجوانبْ
وَلَكَمْ بَكَرتُ له وقــد ... بكرتْ له أيدى السّحائب
فيروقُـنى والجــوّ منـ ... ـه ساكنٌ والقَطْرُ ساكبْ
والطَّــلُّ فى أغصـانه ... يحكى عقــودًا فى تَرائبْ
وتَفَتّحتْ أزهـارُه ... فتأرّجتْ من كلِّ جانبْ
وبدا عــلى دَوْحاتِه ... ثَمَــرٌ كأذناب الثعـالبْ
وكأنّمـا آصـالُه ... ذَهَبٌ على الأوراق ذائبْ
فهنـاك كَمْ ذهبيّــةٍ ... لى فى الوَلُوعِ بها مَذَاهِبْ

عَلَا حِسُّ النـــواعيرِ وأصــواتُ الشّحارير

وقد طابَ لنـا وقتٌ صَــفَا من غيرِ تكديرِ

فقُــمْ يا ألِفَ مولاىَ أَدِرْهـا غــيرَ مأمورِ

وخُذْهــا كالدنانيرِ على رغــم الدنانيرِ

أَدِرْها من سَنَا الصُّبْحِ تَزِدْ نورًا على نورِ

عُقــارًا أصبحتْ مثــل هبــاءٍ غيرِ منثــورِ

بدتْ أحسنَ من نارٍ رأتْهـا عينُ مقرور

نزلنـا شاطئَ النّيــلِ على بُسْــطِ الأزاهــير

وقــد أضحَى له بالمو ج وجهٌ ذو أسارير

وفى الشَّــطِّ حَبَابٌ مثــل أنصافِ القواريرِ

تَسَــابَقْنا الى اللهــو ووافَيْنَـا بتبكـير

وفينـا رَبُّ محـرابٍ وفينـا رَبُّ ماخــورِ

ومن قومٍ مساتيرِ ومن قـــوم مساخيرِ

ومن جِدٍّ ومن هَزِلٍ ومن حَقٍّ ومن زُورِ

فطــورًا فى المقاصيــرِ وطــورًا فى الدساكيرِ

ورهبانٍ كما تدرى من القِبْـــطِ النّحارير

وفيهم كلُّ ذى حُسْنٍ من الإحســان موفورِ

وتالٍ للمــزامــير بصــوتٍ كالمــزامير

وفى تلك البرانيس بدورٌ فى دياجير
وجوه كالتصاوير تُصَلِّى للتصاوير
ومن تحت الزنانير خصورٌ كالزنابير
أتيناهم فما بَقَّوْا ولا ضَنّوا بمذخور
لقد مَرّ لنا يومٌ من الغُرّ المشاهير
على ما خلتَه من غيـ ـرِ ميعادٍ وتقديرِ
فقل ما شئتَ من قولٍ وقدّر كلَّ تقديرِ

ويستطيع الناظر فى شعر البهاء أن يَستخرج أحوالَ عصره فى كثير من الشؤون : فهو يُشير الى عادات وشؤون دينية وغير دينية . وموضوعات شعره متصلة بعواطفه وبحياة زمنه أشدّ الاتصال، بخلاف غيره من الشعراء الذين يكون شعرهم صورة لحياة غير حياتهم، وعواطف غير عواطفهم .

وهذه نَمَاذِجُ مما يتضمّنه شعر البهاء زهير من شؤون عصره :

أنا فى الحبّ صاحب المعجزات جئتُ للعاشقين بالآيات
كان أهل الغرام قبلى أُمِّيِّـ ـين حتى تلقّنوا كلماتى
فأنا اليوم صاحبُ الوقتِ حَقًّا والمحبُّون شِيعتى ودُعاتى
ضُرِبتْ فيهمُ طُبُولى وسارتْ خافقاتٍ عليهمُ راياتى

* * *

تكَهّنتُ فى الأمر الذى قد لَقِيتُه ولى خَطَراتٌ كلُّهن فتوحُ

* * *

واللهِ مذ فارقتُــكم لم تَصْفُ لى مواردى
فهل زمانى بعــدها بقربكم مُســاعدى
فكم نذورٍ أصبحتْ عــلىّ للمساجِدِ

* *

أيا مَعشَرَ الأصحابِ مالى أرا كُمُ على مذهبٍ واللهِ غيرِ حميــدِ
فهل أنتمُ من قومِ لوطٍ بَقيّــةٌ فما منكمُ مَنْ فعلُه برشيدِ
فإن لم تكونوا قومَ لوطٍ بعينهم فما قومُ لوطٍ منكمُ ببعيــدِ

*

وجاهلٍ يَدَّعِى فى العلم فلسفةً قد راحَ يكفر بالرحمنِ تقليدا
وقال أَعرِفُ معقولاً فقلتُ له عَنَّيتَ نفسَك معقولاً ومعقودا
من أين أنتَ وهذا الشيءُ تذكرهُ أراك تَقْرَعُ باباً عنك مسدودا
فقال إن كلامى لستَ تفهَمُه فقلتُ لستُ سليمانَ بنَ داودا

* * *

اذا ما أفَضْنا فى أفانين ذكرِه يقولُ جهولُ القومِ قد عَبَرَ الخَضْرُ

* * *

وصاحبٍ أصبح لى لائمًا لما رأى حالةَ إفـلاسى
قلتُ له إنّى امرؤٌ لم أزَلْ أُفنِى على الأكياس أكياسى
ما هــذه أوَّلُ ما مَرَّ بى كم مثلها مرّ على راسى
دَعْنِى وما أرضى لنفسى وما عليــك فى ذلك من باس
لو نظـر النــاس لأحوالهم لاشتغل الناسُ عن الناس

* * *

قَلَّ الثِّقاتُ فلا تَركَنْ الى أحدٍ … فأسعدُ الناسِ مَنْ لا يعرفُ الناسَا
لم ألقَ لى صاحبًا فى الله أصحَبُه … وقد رأيتُ وقد جَرّبتُ أجناسا

قصدتكُم أَرجو انتصارًا على العِدَا … حَسِبتُكُمُ ناسًا فما كنتم ناسا
فلم تمنعوا جارًا ولم تنفعوا أخًا … ولم تدفعوا ضيمًا ولم ترفعوا راسا

* * *

لما التحى وتبدّلت … تلك السعودُ له نُحوسا
أبديت لما راح يجـ … ـلِقُ خَدَّه معنًى نفيسا
وأذعتُ عنه أنّه … لم يَقصِد القصدَ الخسيسا
لكنْ غَدَا وعذارُه … خَضِرٌ فساق اليه موسى

ما أصعَبَ الحاجةَ للناسِ … فالغُنْمُ منهم راحةُ الياس
لم يَبقَ فى الناس مُوَاسٍ لمن … يُظهر شكواه ولا آسى
وبعد ذا مالك عنهم غِنًى … لا بُدّ للناس من الناس

أأحبابَنا حاشاكُمُ من عيادةٍ
فذلك أمرٌ فى القلوب مَضِيضُ
وما عاقنى عنكم سوى السَّبتِ عائقٌ
ففى السبتِ قالوا ما يُعاد مريضُ

وللناس عاداتٌ وقــد ألفوا بهـا
لهـا سُنَنٌ يَرعَوْنهـا وفروضُ
فَمَنْ لم يُعاشِرْهم على العُـرْفِ بينهم
فـذاك ثقيـلٌ بينهمْ وبَغيضُ

* * *

وقائـلةٍ لمـا أردتُ وَدَاعَها حبيبي أحقًّا أنت بالبين فاجعي
فيارَبِّ لا يَصْدُقْ حديثٌ سمعتُه لقد راعَ قلبي ما جَرَى في مَسامعي
وقامت وراء السِّترِ تبكي حزينةً وقــد نَقَّبته بيننا بالأصابع
بكتْ فأرتني لؤلؤًا متناثرًا هَوَى فالتقته في فضول المقانع
ولمـا رأتْ أنّ الفراقَ حَقيقةٌ وأنّي عليـه مُكرَهٌ غيرُ طائع
تَبَدّتْ فلا والله ما الشمسُ مثلُها اذا أشرقتْ أنوارُها في المطالع
تُسَـلِّمُ باليمـنى عليّ إشارةً وتَمسَحُ باليسرَى مجارى المدامع
وما بَرِحتْ تبكي وأبكي صبابةً الى أن تركنا الأرضَ ذاتَ نقائع
ستُصْبِحِ تلك الأرضُ من عَبَراتنا كثيرةَ خِصْبٍ رائقِ النبت رائع

* * *

أيها النفسُ الشريفهْ إنمـا دنيـاكِ جيفَهْ
وعقولُ الناس في رَغْـ ـبتهم فيهـا سَخيفـه
آهِ ما أسعَدَ مَنْ كا نَتْه فيهـا خَفيفَـه
أيها المسرفُ أكثر تَ أبازير الوظيفـه
أيهـا المغرور لا تَفْـ ـرَحْ بتوسيعِ القطيفه

أيها المسكينُ هَبْ أنّـ ـك فى الدنيـا خايفه
هل يَرُدّ الموتَ سلطا نُك والدنيا الكثيفه

*

كلامِى الذى يصبو له كلُّ سامع
ويهواه حتى فى الخـدور العواتقُ
كلامى غَنِيٌّ عن لحونٍ تَزِينُـه
له معبدٌ من نفسـه ومُخَارِقُ
لكلِّ امرئ منـه نصيبٌ يَخُصُّـه
يُلائم ما فى طَبْعِـه ويُوافـق
يُغنِّى به النَّـدْمانُ وهْـوَ فكاهةٌ
ويُنشِـده الصُّوفِىّ وهـو رقائق
به يقتضى الحاجاتِ مَنْ هو طالبٌ
ويستعطف الأحبابَ من هو عاشقُ

*

تعلمت خَطَّ الرملِ لمـا هَجَرتُمُ لعلِّى أرى شَكْلًا يَدُلُّ على الوصلِ
ورَغَّبنى فيـه بياضٌ وحمـرةٌ عَهِدتُهما فى وجْنةٍ سَلَبتْ عقلى
وقالوا طريقٌ قلتُ يارِبِّ للرِّضَا وقالوا اجتماع قلت يارِبِّ للشَّمْلِ
فأصبحتُ فيكم مثلَ مجنونِ عامرٍ فلا تُنكروا أنِّى أخُطُّ على الرملِ

وإذا كان البهاء زهير شاعر مهنة فى مدائحه غالبا ، فهو فى سائر قريضه شاعر الطبع ؛ وله نفثات تجلّى نفسَه على ما هى عليه وترسمُ سجاياها ، كقوله :

يا سائلى عمّا تجَــدّدَ بى   ألحالُ لم تنقُصْ ولم تزِدِ
وكما علمتَ فإننى رجلٌ   أفْنَى ولا أشكو الى أحدِ

* * *

ومِنْ خُلُقِى أَنِّى ألوفٌ وأنه
يطــول التفــاتى للذين أُفارِقُ
يحــرِّك وجدى فى الأراكة طائرٌ
ويَبعَثُ شجْــوِى فى الدُّجُنّــةِ بارقُ
وأُقسِمُ ما فارقتُ فى الأرض منزلًا
ويُذكــر إلّا والدموعُ ســوابقُ
وعندى من الآداب فى البعدِ مؤنسٌ
أُفارِقُ أوطــانِى وليس يُفــارِقُ
ولى صبوة العُشّاقِ فى الشعرِ وحدَه
وأمّا ســـواها فَهْىَ مِنِّىَ طــالقُ

* *

مذ كنتُ لم تَكُنِ الحيا   ءُ فى المحبّــة من خَلَاقِى
ولقد بَكَيتُ وما بكيتُ   من الرياءِ ولا النّفــاقِ

برقيقــةِ الألفــاظ تحْـ | ـكى الدمعَ إلّا فى المَذَاقِ
لم تدرِ هل نطقتْ بها الـ | ـأفواهُ أم جَرَتِ المآقى
لَطُفتْ معانيهــا ورقّـ | ـتْ والحلاوةُ فى الرِّقاقِ
مِصْــرِيةٌ قــد زانَهــا | لطفًا مجاورةُ العِــراقِ

كذلك تلقّــانى اذا ما ذكرتَنى | يَسُرُّ حِفَاظِى صاحبى وقرينى
اذا قلتُ قولًا كنتُ للقولِ فاعلًا | وكان حَيَــائى كافلى وضَمِينى
تُبَشِّــرُ عنّى بالوفاءِ بَشَاشتى | وَينطِقُ نورُ الصدقِ فوقَ جبينى

الى كم مُقــامِى فى بلادِ مَعَاشِرٍ | تَسَاوى بهــا آسادُها وذئابُهــا
وقلّدتُهــا الدُّرَّ الثمينَ وإنه | لعَمْرُكَ شىءٌ أنكرتْه رِقابُهــا
وما ضاقتِ الدنيا على ذى مُروءةٍ | ولا هو مسدودٌ عليــه رِحابُها

وإنى اذا ارتابَ الوشاةُ لأدمعى | لدى حُجَجٍ لم يُبْدِها عاشقٌ قَبْلى
وأستعمل الكحلَ الذى فيه حِدّةٌ | وأوهِمُ أنّ الدمعَ من شدةِ الكحلِ
فيا صاحبى أمّا علىّ فلا تخَفْ | فما يَطْمَعُ الواشون فى عاشقٍ مثلى
ودَعْنِىَ والعُذّالَ مِنّى ومنهــمُ | سَيدْرون مَنْ منّا يَمَلُّ من العَذْلِ

وكتب الى الوزير فخر الدّين أبى الفتح عبد الله بن قاضى داريا يشكو إليه بعض غِلمانه :

سواكَ الذى وُدّى لديه مُضَيَّعٌ	وغيرُكَ مَنْ يسعَى اليه مُخَيَّبُ
ووالله ما آتيكَ إلا مَحَبَّةً	وإنّى فى أهلِ الفضيلة أرغبُ
فمالِيَ ألقَى دونَ بابكَ جَفْوةً	لغيرك تُعْزَى لا إليك وتُنسَبُ
أُرَدُّ برَدِّ الباب إن جئت زائراً	فياليتَ شعرى أينَ أهلٌ ومَرْحَبُ
ولستُ بأوقاتِ الزِّيارةِ جاهلًا	ولا أنا ممن قُرْبُهُ يُتَجَنَّبُ
وقد ذكروا فى خادم المرء أنّه	بما كان من أخلاقه يَتَهذّب
فهلّا سرتْ منك اللطافةُ فيهمُ	وأعدتهمُ آدابُها فتأدّبوا
ويَصعُبُ عندى حالةٌ ما ألِفْتُها	على أن بُعدِى عن جنابك أصعبُ
وأُمسكُ نفسى عن لقائك كارهًا	أُغالِب فيك الشّوقَ والشوقُ أغلبُ
وآنَفُ إمّا عِزّةً منك نِلْتُها	وإمّا لإدلالٍ به أتعتّبُ

أغار على حرف يكون مِن آسمها	اذا ما رأته العينُ فى خَطّ كاتبِ

* * *

فلَكَمْ فىّ من مكارِمِ خُلْقٍ	ولَكَمْ فىّ من حميدِ صِفاتِ
لستُ أرضَى سوى الوفاءِ لذى الودّ	ولو كانَ فى وفائى وَفَاتِى

وألوفٌ فلو أفارقُ بؤسًا لتوالت لفقده حَسَراتِى
طاهر اللفظ والشمائل والأخلاقِ عفُّ الضميرِ واللَّحَظاتِ
ومع الصمتِ والوقار فإنِّى دَمِثُ الخُلْقِ طَيِّبُ الخَلَواتِ

* *

ومِنْ خُلُقِى المشهورِ مذ كنتُ أننى
لغيرِ حبيبٍ قَطُّ لن أتذَلَّلا
وقد عِشتُ دهرًا ماشكوتُ لحادثٍ
بلى! كنتُ أشكو الأغيَدَ المُتَدَلِّلا
وما هُنْتُ إلا للصبابةِ والهَوَى
وما خِفتُ إلا سطوةَ الهجرِ والقِلَى
أروح وأخلاقى تذوبُ صبابةً
وأغدُو وأعطافى تسيل تَغَزُّلا
أُحِبُّ من الظبيِ الغريرِ تَلَفُّتًا
وأهوى من الغصنِ النضيرِ تَفَتُّلا
فما فاتنى حَظِّى من اللهوِ والصِّبَا
وما فاتنى حظِّى من المجدِ والعُلا

*

أيها الحاملُ هَمًّا إن هذا لا يدومُ
مثلَ ما تفنى المسراتُ كذا تفنى الهمومُ

* * *

حبّــذا نفحةُ ريحٍ ... فرّجتْ عنّيَ غُمّـــهْ
ضربتْ ثوبَ فتــاةٍ ... أكثرتْ تيهًا وحِشْمَهْ
فرأيتُ البطنَ والسّـ ... ـرّةَ والخَصْرَ وثَمّــهْ

أنا بالفراق مُرَوّع أبدًا ... ذا طـالعى فيه وذا نجمى

* * *

أُحبّ من الأشياءِ ما كان فائقًا ... وماالدونُ إلّا مَنْ يميلُ الى الدونِ
فأهجر شربَ المـاء غيرَ مُصَفّقٍ ... زُلَالٍ وأكلَ اللحمِ غيرَ سَمينِ
وإن قيل لى هذا رخيصٌ تركتُه ... ولا أرتَضِى إلا بكــلّ ثمين

* * *

خَلّنِى من تَصَــنُّعٍ ... للوَرَى أو تَزَيُّنِ
فلعمرى يريبــنى ... فرط هذا التسنن

وقال وقــد سمع إنسانا يقدح فى رجل صالح من مشايخ الصــوفية :

أيقدح فيمن شَرّف الله قدرَه ... وما زال مخصوصًا به طيّبُ الثّنَا
لعمرُكَ ما أحسنتَ فيما فعلتَــه ... وليس قبيحُ القولِ فى الناسِ هَيّنا
فيا قائلًا قولًا يســوء سمــاعُه ... بِحَقّكَ نَزّهْنا عن الفحْشِ والخَنَا
نطقتَ فلم تُحسِنْ ولم تَبْقَ ساكتًا ... لقدفاتك الأمرُ الذى كان أحسنا

دَعِ القومَ إن القوم عنك بمَعْزِلٍ   وإنك عن هذا الحديث لفى غِنَى
رجالٌ لهـم سِرٌّ مع الله خالصٌ   ولا أنتَ من ذاك القبيل ولا أنا
تكلّفتَ أمرًا لم تكن من رجاله   لك الويلُ من هذا التَّكَلُّفِ والعنا
تميل الى الدنيا وتُبْدِى تَزَهُّـدًا   ولا أنت معدودٌ هناك ولا هنا

وفى كتاب "النجوم الزاهرة" فى ترجمة البهاء زهير: «وبرع فى النظم والنثر والترسـل، وله الشعر الرائق الفائق. وكان رئيسا فاضلا، حسن الأخلاق، ... ومن شعره:

ولمـا جفانى من أحب وخاننى   حفظت له الودّ الذى كان ضَيَّعا
ولو شئتُ قابلتُ الصدودَ بمثله   ولكننى أبقيتُ للصلح موضعا
وقد كان ما قد كان بينى وبينه   أكيدًا ولكنى رعيتُ ومارعى
سعى بيننا الواشى ففرّق بيننا   لك الذنبُ يامن خاننى لالمن سعى

وكتب عند موته بالديار المصرية، على يد ولده صلاح الدين، الى محمد بن الحكيم عماد الدين الديرينى، وهو آخر ما قاله:

ما قلتَ أنت ولا سمعتُ أنا   هـذا حديثٌ لا يليقُ بنـا
إنّ الكـرام اذا صحبتَهُـمُ   ستروا القبيحَ وأظهروا الحَسَنا

(مطبعة دار الكتب المصرية ٨٧٢/١٩٣٠/٢٠٠٠)